عيد ميلاد ميت

رواية

أحمد طايل

Edit with WPS Office

هناك من البشر من يظل حيا لعقود بعيدة المدى، المواقف الجادة والمؤثرة هي أساس البقاء،

فلنبحث عما يجعلنا أحياء.

هناك أحياء فوق الأرض أموات، وهناك أموات **تحت الأرض أحياء.**

..تقديم..

Edit with WPS Office

=======

لن يكون تقديم رواية أو عمل أدبي ما بكاف في التعريف بالعمل الإ بداعي المنجَز، والمرغوب الانخراط في تلقيه والتفاعل معه. لذلك سيعتبر هذا التقديم مجرد تذوق جمالي من أجل التفاعل مع القارئ المفترض لرواية عيد ميلاد ميت. كما لن يكون دراسة نقدية سابقة لأوانها. فعلى المتلقي تذوق هذا السرد الجديد وهذا الحكي المتميز عند سيد أحمد طايل.

هو تقديم للكاتب والمبدع المتعدد السيد/ أحمد طايل الذي شرف عالم اللغة والإبداع والأدب والفكر بحيويته وإصداراته ونشاطه الذي أغنى به الساحة الفكرية والثقافية والأدبية.

هكذا سيكون تصوري للمقاربة الإبداعية الجديدة عند سيد/ أحمد طايل مازجا بين عرض شخص الأديب ومنجزه الإبداعي. ذلك أن تداخل الذات والموضوع فاعل بقوة وحاضر بامتياز في جل ما يتم إبداعه.

إن مفهوم الفضاء قد عرف تطورا في الفهم والتوظيف، وسعة اشتغال وإضافة فلسفية ومعرفية ومنهجية كذلك. هو مجال للاشتغال السيميائي الذي يحاول الوقوف عند كل عنصر ظاهري أو خفي، حقيقي أو مجازي، جلي أو رمزي، بما أوتي من حيوية داخل النص ومع باقي العناصر الأ خرى. فمثلما هناك أهمية للمكان والزمان والشخصية وغيرها من العناصر هناك أهمية لما تثمره جل العناصر المادية والمعنوية، وتلبسه من حمولا ت ثقافية وذاكرة مبرمجة معها. لذلك سيكون الفضاء مدخلا لإغناء مقاربتنا الآنية والآتية لرواية **عيد ميلاد ميت**. وسنستطيع من خلال توظيفه تبيان درجات السحر والجمالية القائمين داخل المتن الروائي.

وقبل أي مقاربة، وبعد قراءات تأملية متعددة، أستحضر الفضاء العام الذي انكتبت فيه الرواية، فضاء بلاد مصر التاريخ والثقافة والحياة والإ نسان. بلاد النيل وهبته كما أشار إلى ذلك مفكرونا وباحثونا عموما.

Edit with WPS Office

إن فضاء بلاد مصر يدعونا لاستحضار التاريخ الأنثروبولوجي والثقافي الذي أنتج شخصية الإنسان ووعيه وفلسفة حياته. وإن هذا الإنسان كائن ظاهراتي بامتياز. ليس من الضرورة أن يكون مفكرا ومثقفا، بل هو الفرد الذي عاش ويعيش داخل بلاد مصر، والذي ينتمي وينغمس في تشكيلها البيئي واللغوي والثقافي والحضاري والنفسي...

حينما نقول بلاد الشمس فإنها تنتمي في الوصف واللقب والتسمية إلى الرؤية الجمالية والمعيشية للإنسان المصري عموما، للفلاح وللراعي وللفرد البسيط الذي يقدم على اختراق الوجود والزمن وتجربة العيش في هذه الحياة الدنيوية التي تجمعنا جميعا. سيكون هذا الإنسان البسيط صاحب فلسفة خاصة ورؤية في العيش وتصور للوجود والعلاقات، لن يقل قيمة عن التصورات النظرية التي يستنتجها الباحث المتعمق في دراسة من الدراسات.

هكذا تأتي عملية السرد في توافق مع مرسَل الفرد، ومع تلقي العالم لرسالته وخطابه وصوته وتفاعلاته معه. وحينما ننخرط في قراءة رواية **عيد ميلاد ميت** سنجد أن الفضاء العام هو **دلتا بلاد مصر** وباقة هبة النيل الخضراء متمثلة في قراها ومدنها ودائرة قطب مدينة **طنطا** وما جاورها. لن يكون حديثا عن محاور مدن مشهورة مثل الإسكندرية أو القاهرة أو غيرهما، بل هو إشارات رمزية وتوظيفات سيميائية جسدتها الشخصيات والأمكنة والمشاهد الحياتية والبنى القيمية المرتبطة بفلسفة العيش والسلوك والعلاقات الأسرية والمجتمعية.

تأتي قوة هذه الرواية في تدفق منساب في الحكي يصور المشاهد ويُنطق الشخصيات بحالها ومرجعياتها وحاجياتها الحياتية ومواقفها ودرجات تأثيرها وتأثرها. هو تدفق يجري كنهر النيل بهديره وزخمه، يمزج الأصول مع الفروع، وأشكال الخطاب والأحداث، وتكامل البناء العام للعمل الروائي عند الكاتب أحمد طايل.

حينما ينساب النيل ويفيض على الضفاف يترك بصمته المتنوعة التي تمتزج بالتراب فتعطي عناصر الحياة الواعدة بزراعة ومحصول وغذاء

Edit with WPS Office

حياة. هي أعمال الإنسان الذي يؤمن بزرع قيم الحب والخير والكرم و العطاء، والتي تؤتي أكلها كل حين. سينوب عن الشخصيات العظيمة التي أنتجتها بلاد مصر الحبيبة كمحمد عبده وجمال عبدالناصر وغيرهما، شخصيات أراد الكاتب أحمد طايل جعلها تعطي النموذج والقدوة في (كيف تعيش وتكون إنسانا حضاريا) وليس مجرد إنسان أنتجته البيئة فانتسب لها دون أثر زرع جميل وصدقة جارية وعلم ينتفع به وتربية مستمرة ومستدامة في النقاء.

إن اختيار العنوان، واختيار المكان، واختيار الزمان والتواريخ، وعرض نماذج شخصيات قد تصبح شبه مثالية في نموذجيتها وقدرتها على أن تكون قدوة تخلد رسالتها التربوية والقيمية والمجتمعية والحضارية، كل هذا يتم بجمالية رائعة وبوصفة سحرية باذخة استطاع الروائي سيد/ **أحمد طايل** أن يقدمها لنا تتويجا لمساره الشخصي والثقافي والأدبي و الحضاري في (**عيد ميلاد ميت**).

ولن يكون هذا التقديم سوى توطئة محبة للإبداع والقراءة والتلقي. لن ينوب عن الرواية في التعرف عليها وخوض غمار قراءتها. تلك عملية منوطة بكل قارئ وقارئة، كل متلقٍّ ومتلقية. عسانا ننسجم مع رسالة شخصيات عظيمة بصمت بقوة إيجابية تاريخ الإنسانية، شخصيات أراد الكاتب سيد/ **أحمد طايل** أن يُهديَها توظيفه الرمزي والسيميائي، ورسالته الإنسانية الراقية في منجزه الإبداعي وباقته الروائية الجديدة المليئة بعبق التراب والماء والشمس والهواء وضياء القمر ونبض القلوب وعشق الحياة والانتصار للجمال ضد كل ما يخدشه وما يخدش كرامة عيش الإ نسان. فالكرامة ليست بمادة إنما هي إنسان وعفة وعزة نفس وقناعة وتواضع وإيمان وحب للخير وعمل به. وهذه مداخل للقراءة وللعشق وللقلوب المحبة للخير والإنسانية، مداخل لأفئدتكم الراقية والنبيلة.

حسن إمامى.. كاتب مغربى

Edit with WPS Office

دراسة نقدية

=========

" عيد ميلاد ميت ... ! "

لماذا نحتفل له

رواية لـ احمد طايل

قدم الروائي والكاتب احمد طايل روايته "عيد ميلاد ميت" بهذه الفقرة:

"هناك من البشر من يظل حيا لعقود بعيدة المدى، المواقف الجادة والمؤثرة هي أساس البقاء، فلنبحث عما يجعلنا أحياء ..

هناك أحياء فوق الأرض أموات، وهناك أموات تحت الأرض أحياء"

****

.. نحنُ بصدد عمل روائي مُتميز للكاتب الذي نكادُ نقول أن لديه فرطَ إهتمامٍ بالإنسان كونهِ يُمثلُ كُتلةٌ بشرية منحوتةٍ من البيئة ناطقٌ ومعبرٌ عنها مُتأثراً ومؤثراً تأثير كبيراً و واضحاً فيها بل ودالا عليها ، حيثُ لا خِلافٍ على أن الإنسان إبن بيئتهِ بل وعنواناً لها ، والكاتب هنا في - روايتهِ هذه - بوعيٍ منهُ أو بدون تتسمُ كما في أغلب رواياتهِ ؛ بشغفهِ بالبيئة وخاصةٍ الريفية ؛ يعرضُ وينتقي من خلالها أبرز القيم التي تصنع وتصوغ هوية المواطن المصري بالدرجةِ الأولي والإنسان بصفةٍ عامة لكنهُ في مهارة حرفية في البناء السردي للرواية يُقدمُ ذلك من خلال النماذج البشرية المختلفة ذات الإختلاف البين والمُتعارض والواضح و الصريح كما هُم ؛ فهم الذين يصنعون (الحدث) وهو بحرفيتهِ يُعيد صياغتهِ وترتيبهِ وتركماته ونتائجهِ فتبدو لنا المشاهد آخذةٌ من العمق ما يؤكدُها ويُثري المعمار البنائي للرواية فتبدو لنا بصورةٍ تلقائية أهمية " القيمة " المتوارثة التي تدعم ما نبحثٌ عنهُ و نحنُ نركضُ فوق السطورِ وبين الصفحاتِ عبر تقنية السرد الحكائي المبني والمطوعُ له الكلمة والعبارة العربية السليمة لغوياً وأدبياً وفق

Edit with WPS Office

عناصر السرد القصصي من سهولة اللفظ ودقتهِ والإختيار الصحيح من بين المُترادفاتِ العديدة ؛ وأيضا بعيداً عن الإسترسال المُخل مع عدم إغفال عنصرَ التشويق الكامن في سياق المشهد والمُمهد لِما يليهِ .

الرواية تتعدد فيها الشخصيات التي تُحركُ الأحداثُ ، والأحداثُ ايضا تُحركها وتجعلها نابضةٌ بالحياة بتدفقات ومواقف يُصيغُها الكاتب بِمهارةٍ في إتجاه البناء التصاعدي لِدراما وديناميكية تُضاعفُ عنصرَ التشويقِ والجذب لِما وراء الحدثِ أو الموقفِ ؛ إن تعدد الشخصياتِ هنا و أحياناً تشابه بَعضِها في حمل ونقل القيم السامية وتوريثها ورفض السيئ منها وإقصائِها والبعد عنها ونبذها يجعلنا على جادة الكاتب في إيجاد " سيميائية " جينية تنقلها و تتوارثها الأجيال وتزودُ عنها وسط أعاصير القيم الغريبة التي تتدفق علي البيئة بفعل تقنيات العصر او حركة التنقل والترحالِ بين أرجاء العالم الذي صار كقريةٍ صغيرة أبواب مُدنها نوافذها مُشرعةٍ ومفتوحةٍ لموجات عاداتٍ وتقاليد تتدفق وتتحرك بِعنفٍ لإحداثِ تغيير يُسلسل أو يَضمُ العالم كلهِ في سلسلةٍ ؛ وفق عولمةٍ طاغية تفطنُ أو لا تفطنُ إلى التفاوات والإختلاف الواسع والشاسع بين ثقافات و موروثات الدول شمالها عن جنوبها وشرقها عن غربها ؛ ذلك كلهِ أدركهُ كاتبنا وعكف كما قلنا إلي تأصيل الهوية والثقافة المحلية من خلال شخصيات روايته بإستخدام عنصر " الزماكانية " في ربط الأحداثِ ورسمِ الشخصياتِ . فقد إنتقل بنا بسلاسةٍ ويُسر ما بين المدن القاهرة ، الأسكندرية وبعض عواصم ومدن محافظات مصر وأيضا الدول الغربية كا إيطاليا واليونا ن وألمانيا وهولاندا وانجلترا بقدر ما غاص في قُرى وريف مصر البِكر وعَرج بعمقٍ وصفاً وتفاصيلا ً للأخلاق والسلوكيات اليومية لـ لأفراد وكذلك العادات والتقاليد المتعددة والمختلفة فيها مثل علامات التعبير عن الفرح في الزواج أو المشاطرةِ في الأحزان وغير ذلك من المناسبات الاجتماعية التي تتسم بمراسم و إعدادات مُختلفة لإحيائها كا الولادة والطهور والخِطبة وليلة الزفاف وما يسبقها في ليلة الحِنةِ ؛ وأيضا المناسبات والدينية والأعياد ناهيك عن مجتمع القرية الذي يلجأ للتحكيم وفض المنازعاتِ بعيداً عن السلطات الحكومية .. الخ ذلك من ملامح البيئة القروية المصرية التي تُصدر ذلك لمجتمع المدينة كوقايةٍ ودرءٍ لأحماض العصر التي تتغول و تُذيب صلابة الصمود أمام التأكلاتِ التي تلحقُ بالهويةِ المصرية ، الكاتب يستغرق في ذلك بعيونٍ راصدةٍ العلل و التآكل و مُحصناً لها بالأسبابِ المانعةِ لقسوةٍ و مُعاناةِ أحماض هذا العصر السالبة والغير متوافقة مع الرقي الحضاري المُفترض .

إن " محمد العيسوي وزوجتيه بثينة ، و تحية ؛ وأولادهِ منها " ، و " محفوظ العربي وعائلته " يُمثلان نموذجين جيدين أبدع الكاتب في تعقب وعرض مسيرتهما الحياتية الغنية ؛ والثرية بعديد أيضا من الشخصيات التي تدور في فلكهما ومن خلال ذلك نتعرف و بِدقةِ على الكثير مما يدعم من خلال الإحداث و المواقف ما يدعمُ البناء المعماري للرواية و " السيميائية " ذات الدلالات القوية و

Edit with WPS Office

المُجسدة للموروث البيئي القِيمي ّ والحضاري ؛ وذلك يُحسبُ لبراعةِ الكاتب في بناء الشخصيات أو بناؤه المعماري لروايتهِ .

وفي هذه الفقرات من الرواية نلمسُ العُمق الكامن في بناء الشخصية وحركة الأحداث والمواقف المُتابعة والمرسومةِ بِعنايةٍ :

* " لعلك عرفت مما رأيت اليوم أن المحبة هي الثروة وليس المال أو السلطة، دعوات الناس الصادقة هي سبب بركة رزق الحاج، المحبة لا تباع ولا تشترى، ولكنها مواقف وأسلوب حياة. سر أنت أيضاً على هذا النهج، لا تجعل المال أو السلطة همك الأول، محبة الناس هي الأهم وهي الداعم للحياة " .

وأيضا هذه الفقرات تعكسُ بعض ما ذكرناهُ من إهتمام الكاتب بترسيخ القيم ودعمها في وصايا جيلٍ لجيلٍ :

* " طلب منهم أن يتجمعوا جميعا في البيت على أوقات متقاربة وأن يتفقوا على مواعيد مناسبة للجميع، وهو ما تم تنفيذه بشكل فعلي. أضاف مطلبا كان في كل وقت يجالسهم به أن لا ينزعوا عنهم عباءة مجتمعهم الذى عاشوا به وعاش بهم، طالبهم بالحفاظ على التقاليد والقيم التي هي عنوان الإنسان إن نزعها أصبح مثل ريشة في مهب الريح، يتمرجح يمينا ويسارا دون أن يستطيع الوقوف على أرض صلبة " .

* " يا (محروس) ضع أمام عينيك وعقلك وتفكيرك أمرا هو الأهم في الحياة، أن تقترب من الناس، من الجميع وأن تشعرهم بأنك شريك لهم في كل أمورهم، ساعتها سوف تجني أهم ثروة في الحياة وهي محبتهم وخوفهم عليك، والإحساس بك، وأظنك تعرف هذا، فقط أذكرك به " .

ولم يَفتْ الكاتب في رصدهِ تأثير البيئة والظروف " الزمكانية " التأثير السريع و المباشر على القيم حين أشار لحدثين مُهمين في مصر كانا لهما التأثير الأوقع و الحاد والمباشر خاصة ما لحق بالقرية المصرية من تغير أحيانا أو إنحساراً لبعض القيم أوالسلوكيات البشرية في إنسان القرية والمدينة ، وذلك عندما أشار إلي الحِقبة الناصرية التي كان من إيجابياتها فتح مجال التعليم وبالتالي " الوعي الجمعي " بالفوارق الاجتماعية خاصة طبقة "رجال الإقطاع الزراعي المتمثل في البشاوات والأثرياء " بما لهِ وما عليهِ وكذلك طبقة " رجال الأعمال والأثرياء " في المدينة ،فقد ألمح بعكس ما كرست الحقبة الناصرية على التشويه العام و المُجمل لطبقة الإقطاع من مساؤى مُتمثلة ّ في النظرة الدونية لطبقة الفلاحين وعمال الزراعة من ناحية ؛ دون إغفال بعض الخدمات الاجتماعية والصحية التي

Edit with WPS Office

أبرزت ما يُشبه الطبقة الوسيطة بين عامة الفلاحين ومن يعملون كا " حاشية " لهؤلاء البشاوات فهم مع إرتباط عملهم بالبشاوات برزت منهم نماذج قللت من حِدة الفارق بين مجتمع الباشاوات والفلاحين والأجراء فإختار الكاتب هذه النماذج الإيجابية لبيان أهميتهم في حفظ القيم الأصيلة وجعلهم حائط الصد القوي ضد إنهيارها أو إنحسارها ؛ إشار إلى ذلك بذكر تاريخ رحيل عبد الناصر في الثامن و العشرين من سبتمبر 1970 ؛ وكأنه يُسجل تحفظهُ على ماسجلتهُ بعض الروايات و الأفلام كا روايات رد قلبي ليوسف السباعي ، وعصفور من الشرق ويوميات نائب في الأرياف للحكيم والأرض لعبد الرحمن الشرقاوي والنداهة ليوسف إدريس وغيرها من روايات وافلام ومسلسلات أبرزت سطوة الإقطاع و نماذج لبعضٍ من الباشوات ؛ وبالمثل أشار لبدايات الإنحسار الأشد وتهاويّ كثير من القيم الرفيعة و العالية في أعقاب إنتقاضة 25 يناير والإنتكاسة التي أعقبتها لعدم بيان و وضوح السبيل أمامها وركوب وإدارت دَفتها قوى مُتعددة بأيدولوجيات مُتباينة بل ومُتضادة فإنفتح الباب أمام قوى الفتنة والشر المكتوم بإزاحة كل القيم الرفيعة والتخلص منها في صور السلب والسطو العام وتدمير المنشآت الحكومية والأهلية مرات أوفي تجاهل القيم المعنوية مثل الأحترام وتقدير الكبير وعمل الخير ... ألخ .

لقد ضَمن الكاتب هذا في ختام روايته كأنما يُشيرُ إلى المآذق الحالي وأهمية الدراسة الاجتماعية لما حدث ويحدث على ارض الواقع المصري الحالي وأهمية ا لإلتفات لمدى عُمق تأثير الحركات السياسية والإجتماعية القويُ والمباشر على قيم شعب توارث عبر عصورٍ قيماً جعلتهُ يتصدر مقاومة الغزو الغاشم من قوى الشر والإفساد الذي يهبُ دوما من الغرب .

الرواية تحملُ عناصرُ نجاحها متمثلا في السرد والحكي الراقي والمتميز ، و الشخصيات المرسومة بدقةٍ وعناية ، واللغةِ والحوار البسيط والدقيق .

سيد جمعة

ناقد تشكيلي واديب مصرى

Edit with WPS Office

١

مكى سكة

اليوم من أيام ديسمبر، الشمس أعلنت الرحيل قبل موعدها، الرياح الشديدة التى تتلاعب بكل شئ، بالبشر العائدين من حقولهم ومعهم ماشيتهم يتطوحون يميناً ويساراً من شدتها وكل سقوف بيوت القرية من قش الأرز وحطب القطن والذرة تتراقص فوق البيوت رقصا أشبه برقص المخمورين بلا تناسق برقصاتهم، حتى الأبواب والنوافذ شاركت وتركت نفسها لكل هذا للتلاعب بها، والغيوم المعتمة ألقت بكل أنواع عباءتها على كل شيء، ضاع الخيط الأبيض بين الخيوط السوداء، الظلام الحالك يسود كل الأرجاء إلا بعض الأضواء لمصابيح مضاءة ولكنها أيضا ترتعش، تتوهج إضاءتها وتخفت حسب قوة هبات الريح التي تخترق كل البيوت دون أي إذن، محطة القطار بمحطة (طوخ بالقليوبية)**,** مجرد رصيف بطول لا يتجاوز العشرة أمتار من كل جانب، وآرائك خشبية متهالكة لو تم الجلوس عليها ببعض القوة ربما تسقط بالجالس عليها، حجرة ناظر المحطة حجرة صغيرة يعمل بها موظف يحضر بالثامنة صباحاً ويغادر بالسابعة مساءا، ويتناوب مع آخر يأتي بالسابعة مساءاً ويغادر بالسابعة صباحا، يقوم كلاهما بكل الأعمال، صرف

Edit with WPS Office

تذاكر، استقبال إشارات القطارات الآتية من الجانبين من اتجاه (بنها) أو من اتجاه (القاهرة), أيضا المرور على عمال المزلقان بشكل منتظم لضمان عدم حدوث ما يؤدي إلى بعض الحوادث، (مكي بهلول) أو (مكي سكة) كما يطلق عليه كل المسافرين ولكن ذات اللقب لا يطلق على زميله (محسب بحيري), ولا يدري سببا في عدم إطلاق لقب (سكة) عليه هو الآخر، لم يتوصل إلى إجابة، ولكنه أحال الأمر إلى أنه ليس من أبناء مكان عمله لذا نال هذا اللقب الذى أصبح مرافقا له حتى أنه نس لقب عائلته (بهلول)، هكذا أهل الأماكن دوما يميزون الغرباء بكنيات معينة، هو الذى يعمل بهذا العمل من قرابة الخمسة عشر عاما، عندما فشل بإكمال تعليمه، وصل إلى الصف الثالث الاعدادي بطلوع الروح، ولكنه لم يستطع المرور منها مطلقا لعامين متتالين، أخرجه الأب الذي كان يعمل بـ السرايا الوحيدة (بكفر منصور) والمملوكة لسليل العائلة التي تتولى زمام القرية من زمن لا يعي أحد من أبناء القرية تاريخ هذا تحديدا، العمودية تنتقل بين أبنائها بكل سلاسة، لم يحدث يوماً أن تجرأ أحد لمحاولة اقتناصها، (حامد باشا الطحاوي)، ولده الذى كان يتبوأ موقعا سياديا هاما، توسط الأب عنده ليحصل ولده على وظيفة، وفر له العمل بمصلحة السكك الحديدية، بدأ عاملا عاديا ممن يمرون على القضبان للتأكد من صلاحيتها وإزاحة تراكم الزلط أو بعض الأشياء الأخرى، وبالحاح دائم من أبيه إلى الباشا الصغير (حافظ الطحاوي) تم إلحاقه بهذه الوظيفة من حوالي سته أعوام، وكان يتمنى أن يستمر تواجد البشوات الكبير و الصغير ليدفعا به إلى الأبعد من هذا، ولكن ليس كل ما يتمناه المرء يدركه، مات الباشا الكبير، والصغير تم تولى حقيبة سفير بإحدى الدول الكبرى، ولم يعد إلى القرية إلا مرات قليلة كل عدة أعوام، وأصبح الوصول إليه أيضا صعبا، سلم أمره لله راضيا وقانعا، فقد نال ما لم ينله بعض قرنائه من عمل، الوساطات والعلاقات يكون لها نصيب كبير من توجيه دفة الأمور كما تريد وحسب البوصلة التي تريدها، إلا هذا اليوم كان على (مكى) الاستمرار بالعمل طوال اليوم والليلة نظراً لظروف ألمت بزميلة الذي أرسل ابنته تخبره بهذا، ورغم تأففه إلا أنه لايملك أن يبد رفضاً، تبرم لبعض الوقت ولكنه همس حينها لنفسه، الناس لبعضها، الرصيف خالي من الجانبين إلا من نفر قليل يعد على أصابع اليد الواحدة، تمنى أن تأتي القطارات وتقذف بهم إلى أحشائها، مؤكدا ليس

Edit with WPS Office

هناك من مجانين يأتون بهذا الحال من (زعابيب) الرياح التي تكنس كل شيء أمامها بالإضافة إلى الظلام الدامس، فالقرية بهذه الفترة تعيش على لمبات نمرة عشرة ونمرة خمسة وبعض (الكلوبات)التي يملتكها بعض الميسورين حالا وأصحاب الكلمة العليا بالقرية، القطارات تمر كل ساعة ذهاباً وإيابا، يمضي الوقت عنده بارتشاف الكثير من أكواب الشاي شديد القتامة ظنا منه مثل الكثيرين أن مثل هذا الشاي يؤدي إلى اليقظة، والجلوس على المقعد الوحيد مستندا بشكل كبير إلى ظهره مادا قدميه، ربما أحيانا تنتابه بعض مداعبات النعاس له، يقوم برفضها بالإسراع بالنهوض فجأة والسير بالغرفة مرات عديدة وكأنه بطابور مدرسي أو طابور عسكري، يتمطى كثيراً ويقذف وجهه ببعض الماء، يفتح النافذة الصغيرة بالغرفة ليتلقى دفقات من الريح لتوقظ خلاياه جميعها من محاولة النوم، أتى قطار من اتجاه (القاهرة), تلقى من السائق بعض الأشياء وأعطاه لفافة مؤكد تحتوى على بيانات خاصة بالمحطة، أسرع إلى الغرفة هربا من الرياح التي كادت تقذف بجسده الناحل الضئيل إلى القضبان ليأكله القطار، الذى يأبى كل فترة إلا أن يأكل رجلا أو سيدة، شابا أو شابة، أو عجائز، حتى الحيوانات لها نصيب من وجبات القطارات، وكأن القطارات تحولت إلى ما يشبه النيل الذى كان يرفض أن يفيض إلا بإلقاء عروس إليه، لم ينتبه للرجل الفارع الطول صاحب البنية القوية وكأنه من عماليق الأزمنة السحيقة، والمرأة التي تصل قامتها بالكاد إلى كتف رجلها، بصحبتهم ولدان وبنتان أعمارهم تتأرجح بين العاشرة والعامين ، إبن صغير محمول على ذراعي أمه، أغلق باب الحجرة عليه مسرعاً لإشعال وابور الجاز لعمل شاي يعوضه عن لحظات البرد التي نالها، لم ينتبه إلى طرقات ونقرات خفيفة على خشب النافذة، الطرقات كانت خافته تاهت وسط صراخ الريح، اضطر الرجل إلى معاودة الطرق بشكل أكبر ارتجف من الطرقات، انتابه الخوف من قدوم أحد الخارجين للاستيلاء على إيراد المحطة، الظلام الدامس والرياح تشجع على هذا، فتح النافذة بعض الشيء، متسائلا برعشة صوته.

* من؟

* يا أستاذ نحن أغراب نسأل عن بلد اسمها (كفر منصور).

اتسعت حدقتا عينيه إلى أقصى سعة لهما، وفغر فاه، ورسمت الدهشة

Edit with WPS Office

كل علاماتها على محيط وجهه، تدارك دهشته وسأل ثانية.

* هل لكم أقرباء بها؟

* نريد الذهاب الى الحاج (عيسوي مفتاح).

* هل تعرفه؟

* معي رسالة أمانة له، والأمانة لابد من إيصالها لصاحبها.

أراد أن يسترسل بتساؤلاته، ولكن الإجابات القصيرة والمقتضبة دفعته للسكوت، حدثه.

* الجو صعب كما ترى، والمسافة من هنا إلي (كفر منصور) ليست بقليلة ، أنا منها، من أجل الأولاد وظروف الجو، أستضيفك بهذه الحجرة حتى الصباح وأذهب بك الى بيت (عيسوي) بالصباح.

أشار إليهم بالدخول، دخلوا مهرولين هربا من هذه الرياح وهذا الصقيع، بلا أي ترو أخذوا ركنا من أركان الحجرة، وجلسوا مستندين بظهورهم إلى جدرانها، أتى بالغطاء الصوفي الوحيد ووضعه على أجساد الصغار و الزوجة، أما عنه وعن الرجل فيمكنهما التحمل، أسرع بإيقاد الوعاء الفخاري المملوء بقطع خشبية صغيرة سكب عليها بعض الجاز وأشعلها لبث التدفئة إلى الأوصال التى بطريقها للتجمد، ووضع الإناء المعدني الذى يصنع به الشاي شديد القتامة والمليء بعدد كبير من ملاعق السكر، إناء كل حوافه محاطة بالسواد جراء الاستخدام الدائم وبلا هوادة ولسنوات طوال لا يعرف عددها، اكتفيا بتبادل النظرات وتجوالها على وجه كل منهما، لم يمنحه الرجل أي حديث يسبر غور ما ينهشه من تساؤلات، المعروف عن (مكي) لدى كل من يعرفه أنه شديد الفضول، كثير التساؤلات، ما إن يتواجد بأى مجلس حتى ولو على سبيل الصدفة، لابد من طرطقة أذنيه، وفنجلت عينيه، والمقاطعة الدائمة بتساؤل مفاجيء قد يكون له داعى والأغلب أن لا يكون له داعى فتنتاب الحضور وصلة شديدة من الضحك حتى إن البعض قد يستلقي على قفاه، الرجل وضع رأسه بين ساقيه وأطلق نفسه إلى أحضان النعاس، وعلا غطيطه الذى أعطى حياة للمكان، ما كان عليه إلا أن يمد ساقيه أمامه ويحاول تهدئة تفكيره، الجميع غط بالنوم تتصاعد نغمات أنفاسهم بشكل غير متناسق

Edit with WPS Office

على الإطلاق، هناك ما هو ممطوط وهناك ما هو قصير وهناك الرفيع كأنه سرسعة، وهناك شديد الغلاظة، أصبح هو حارس النائمين، يهرول خارجا حين تأتيه إشارات بقدوم قطارات، ويعود سريعاً بحثا عن دفء عوضاً عن لسعات البرد التى نفذت إلى أوصاله، مر الوقت بطيئا للغاية، أتاه قرآن الفجر من المصلى المقام قرب المزلقان والذى يتلوه أحد شباب جامعة الأزهر القاطن قريبا من المحطة، اقترب من الرجل النائم ربت عليه بهدوء هامسا.

* يا بلدينا، هيا للوضوء وصلاة الفجر.

فتح الرجل عينيه بتثاقل شديد، وجه إليه نظره مؤكداً له استيقاظه، ونهض وتمطى بحثا عن إعادة تنشيط أعضاء جسده وعودتها إلى مضمارها الطبيعي، وضع كل منهما طرف الكوفية التي لم تغادر أعناقهما على فمه، وخرجا، وبلا أي ترتيب سوى الترتيب الذى يأتي من الله، تأبط كل منهما ذراع الآخر وسارا سويا، تم الوضوء والدخول إلى المصلى الذى يوجد به عدد لا يتجاوز عدد أصابع اليدين أو يزيد قليلا، صليا فروض السنة والدخول إلى المصلى، بعدها أخذا مكانهما متجاورين، يتمتمان بالأ دعية مثلهم مثل كل المتواجدين، عندما رفع الآذان تجاورا، الكتف ملا صق الكتف والقدم موازية للقدم، أديا الصلاة وخرجا متبأطئي أذرعهما، شتان الفارق بين طوليهما، (مكي) بالكاد يصل إلى القرب من صدره، لكى يعطيه دفقه تروي ظمأ دهشته مال عليه وقال له أشبه بهمس.

* أنا (رشوان جابر الصعيدي).

وقبل أن يمنحه فرصة التساؤل هل الصعيدي لأنه من الصعيد أم أنه لقب عائلته؟، رفع كفه، وأكمل حديثه.

* الصعيدي إسم العائلة.

وعاد إلى صمته الذى يزيد من الدهشة والتساؤلات، عادا إلى الغرفة، أتى بصرة من القماش فتحها بها عدد من (البتاو) والجبن الأبيض وأعواد من الجرجير، طلب منه إيقاظ عائلته لتناول ما هو قليل من الطعام ولكنه المتاح ولا يملك غيره واعدا أنه سيأخذهم قبل الذهاب بهم إلى بيت (عيسوي) لإكمال افطارهم، اقبل الأولاد والزوجة على ما وجد من الطعام، مدهم بالشاى الساخن ليعيد الدفء إلى أجسادهم، إلتهموا هذا

Edit with WPS Office

الطعام القليل، لمح بأعينهم عدم الشبع.

* ساعات قليلة ونذهب إلى البيت ونتناول الطعام كما تريدون، فقط يأتي عمكم (محسب) وبعدها نذهب الى البيت.

عندما أزاح شعاع الشمس الشاحب بعد الغيامات وأعلن بدء يوم جديد جاء (محسب), نقر الباب بأصابعه مردفا النقر بالنداء، فتح الباب، لم ينتبه باللحظة الأولى لوجودهم بالحجرة، بل دخل صائحا.

* حقك على يا (مكي)، والله كان غصب عنى، الزوجة وضعت وأضافت إلى طفلا جديد وعبئا جديدا، سماح عامة سوف أعوضك هذا اليوم، لا تأتى إلا غدا بموعدك المسائي، أنا عامل حسابي على هذا، ورفع صرة كبيرة بيده، موحيا أنه أتى بطعام يكفيه لكل هذا الوقت، فجأة توقف عن الحديث واتسعت عيناه وارتفعت أهدابه، أجابه سريعاً بلا انتظار.

* (رشوان الصعيدي) جاء ليلا يسأل عن (عيسوي مفتاح) أحد كبار بلدنا، وكان الجو لا يسمح أن يذهبوا إلى القرية، طلبت منهم أن يمضوا الليلة هنا والصباح له عيون.

رحب بهم، سلمه (مكي) العهدة وأخبره بعض التعليمات، هو أقدم منه بالعمل وله حق أن يمارس عليه سلطته، ألقى السلام وقذف نفسه خارج الحجرة وهم بأعقابه، ساروا بعض الوقت، توقف على مقدمة الطريق، أخذ يشير للسيارات زاعقا (كفر منصور)، مر وقت ليس بالقليل حتى توقفت أمامهم سيارة نصف نقل مما تنقل الخضروات والماشية إلى الأسواق، صعدوا إلى الصندوق الخلفي للسيارة حسبما أشار إليهم السائق، تكوم (رشوان) وعائلته بجانب، وهو أخذ الجانب المواجه لهم، ربع ساعة أو أكثر قليلا، توقفت السيارة، نزلوا وقبل أن يمد يده لدفع الأجرة كان (رشوان) قد قفز ونفح السائق أجرته وسط صيحات الرفض منه، اكتفى بالرد عليه لتهدئته، هامسا.

* كلها حاجات بسيطة، ثم أنت قمت بالواجب وأكثر.

وعاد إلى صمته مكتفياً بالسير وقبيلته وراءه وقد اتسعت خطواته وكأنه

Edit with WPS Office

يهرول، بالفعل كان سيره أشبه بالهرولة، اعتاد أن يخرج من عمله إلى الحقل حيث يجد زوجته وبنتاه، وأخيه وزوجته التي لم تنجب رغم مرور سنوات على الزواج بانتظاره يتناولون الإفطار سويا، ويشارك ببعض الأعمال الفلاحية، ساعة أو ساعتين حسب مقدرته على العمل، ويغادر عائدا إلى البيت، قد تعقبه الزوجة وهذا ما يحدث كثيراً لتنال حظها من رجلها، تذهب معه بداعي أنها ستقوم لإعداد طعام الغذاء وتنظيف البيت، تعلو البسمات شفاه الأخ وزوجته، ويشيعونهم بالسلام الحار والمصاحب أحيانا بالضحكات، سار بهم طويلا بين المزروعات تاركاً عمار القرية، ولم يسأل (رشوان) أي سؤال، اقترب من حقله، ما إن رأته ابنتاه إلا وأسرعتا إليه، كل منهما تمسك بإحدى ساقيه، هما بعمر الثانية عشرة والعاشرة، مال عليهما وقبل كل منهما، توقف على رأس الحقل وصاح بأخيه.

* يا (سالم) تعالى سلم على ضيفنا (رشوان الصعيدي) جاء يسأل عن (عيسوي مفتاح).

سارع الأخ والزوجتان بالترحيب بهم، طلبت زوجة مكى أن تذهب إلى البيت لإحضار مزيد من الطعام، لم تنتظر الرد، هرولت تاركة الحقل، غابت قرابة النصف ساعة وعادت تحمل على رأسها صينية كبيرة مغطاة بشكير كبير، وضعت الصينية بمكان ليس به زرع، وكشفت الغطاء عن أطباق من الجبن الأبيض والقديم وطاجن لبن رائب وبعض من الخضار وعدد كبير من (البتاو) وهو خبز لم يكتمل طهيه بالنار، أشارت إليهم با الحضور، إلتف الجميع حول الصينية، مضى الوقت وقد انتهوا تماماً من كل محتويات الصينية ، أسرع (سالم) بإيقاد نار بين حجرين وقام بصنع الشاي، كل هذا ولم ينطق (رشوان) إلا بكلمات شكر مقتضبة.

* شكرا لكم ربنا يقدرني وأقدر أرد معروفكم..

طال الوقت بهم انتظاراً لإنهاء عمله ، الأطفال أخذوا باللعب مع البنتين يجرون على حواف المصرف وبين الزراعات وتتعالى ضحكاتهم، وكأنهم على معرفة سابقة. ببعضهم، هكذا الطفولة دوما لا توجد بتصرفاتها أي حواجز كلها عفوية تصدر كما هي دون أي تدخلات لمحاولات تغيير مسارها أو طبيعتها، بعد أكثر من ثلاث ساعات ، خرج (مكى) من الأرض ، اغتسل من مياه المصرف ، ارتدى جلبابا كانت الزوجة قد أحضرته

Edit with WPS Office

، وأشار إليهم بمتابعته، يسيران متجاورين يتبادلان النظرات كل فترة ، والزوجة والأولاد يسيرون خلفهم، يمرون على البعض. سواء بالأراضي أو من يجلسون على العتبات والمصاطب يلقون بالتحية السريعة المقتضبة والتي كثيرا ما تكون. برفع أحد الكفين، طال بهم السير ، وعيون (رشوان) تتساءل هل مازال الطريق طويلا؟، يهمس له .

* هانت يا بلدينا.

بعد وقت طال مداه إلى ما يقرب من نصف ساعة وجدا أنفسهما أمام بيت. مكون من عدد من الطوابق، مقام على طراز ليس معهودا بالقرى وربما ببعض المدن الصغيرة، محاط به سور مرتفع حوالى المترين تزينه مصابيح ، وأشجار باسقة تلتف حوله إلا من الجهة المقابلة لمدخل البيت، من الواضح أن مساحته كبيرة، السور الخارجي به أكثر من باب من الصاج، الأكبر منهم تعلوه لافتة (مفتاح وبكر للتجارة), اقترب (مكى) من الباب، طرقه طرقات خفيفة، ثم طرقات أعلى قليلا، فتح الباب قليلا عن رجل ممتلئ الجسد، فارع الطول ، ما إن رآهم حتى سأل .

* خيرا يا (مكي).

* هذا الرجل جاء لمقابلة الحاج (عيسوي) يا (عبد الهادي)

بلا رد أشار إليهم بالدخول، أغلق الباب. وطلب منهم الإنتظار قليلا حتى يخبر الحاج، أخذ (رشوان) يدور بعينيه بالمكان،، المكان يوحى بالثراء الفاحش، كل شيء. به يدل بلا أي جدال على هذا، أتى الرجل ملوحا إليهم وهو على درج سلم المدخل بأن يأتوا، عفويا خلعوا نعالهم ، ورفعوا أرديتهم خشية أن يكون عالقا بها بعض الغبار والشوائب ،دخل بهم إلى بهو شديد الاتساع، أمرهم بالجلوس على أحد الصالونات الكثيرة التي تملأ البهو، التحف تحيط بكل جوانب المكان، الإضاءات التي عرف فيما بعد أنها من ماكينة توليد الكهرباء التي يملكها الحاج لإضاءة البيت لطوابقه والمحلات، جلسوا على أطراف المقاعد يتبادلون النظرات الحيرى ، طال الوقت بهم، انتبهوا على وقع خطوات على درج السلم الهابط من حيث توجد الحجرات الخاصة، رفعوا الأعين يبحثون عن مصدر الصوت، رجل صاحب قامة طويلة ، متوسط البنية

Edit with WPS Office

الجسدية، يرتدى جلبابا كشميريا فخما تعلوه عباءة أكثر فخامة ، يهبط الدرج بتؤدة وهدوء ، لوقع أقدامه نغمات متناغمة ، وجه شديد البياض الشاهق مع بعض الحمرة فتضفى عليه وسامة كبيرة، وقفوا تلقائيا، ا قترب من مكان جلوسهم، علا صوته ترحيبا بهم، معروف عنه هذا السخاء الترحيبي، حتى لو كان يلتقى بهم أول مرة.

* أهلا وسهلا بكم، شرفتمونا، تفضلوا بالجلوس.

لم ينصاعوا لطلبه ، كرر الطلب حتى استجابوا ، نظر إليهم مليا ، نظراته متسائلة عما يريدون، فهم (مكي) وحل طلاسم النظرة ، سارع بالحديث.

* يا حاج (عيسوي) ، (رشوان) طلب منى أن أذهب به إليك ، هو من يقول لك السبب.

ووجه بصره إلى (رشوان) مشيراً إليه بالحديث ، لم يتفوه ولم ينطق بكلمة واحدة ، اكتفى بالنظر بين (مكي) والحاج، الذى أسرع بفهم المراد، سارع بالإشارة إلى (مكى) أن يأتي إليه ، نهض مسرعاً إليه ، الحاج أدخل يده بجيب جلبابه ، خرج بها تقبض على بعض النقود، لم يهتم. كم قيمتها ، أمسك بكفى يده ووضعها بها مردفا ولها.

* شكراً يا (مكى) أتعبناك.

* لا تعب ولاشيء دوما أنتم أصحاب فضل، سلام عليكم.

وأخذ طريقه للانصراف بظهره حتى قارب الباب وكأنه كان يعرف عدد الخطوات، بعدها تكلم الحاج.

* أي أوامر يا بلدينا ، خير. تفضل.

* خيرا يا حاج، أنا معي مكتوب من (حازم باشا البدوي) رحمة الله عليه ، طلب منى قبل وفاته بشهور أن أذهب به إليكم أنا وأسرتي ولم أسأله عن أي شيء ، وها أنا جئت به .

تمتم الحاج ، رحمة الله عليه ، مد (رشوان) يده داخل جيبه الصديري الذى يرتديه داخل الجلباب ، وأخرج مظروفا مغلقا ، مد يده به إلى

Edit with WPS Office

الحاج، تناوله وفتحه على الفور، بضعة أسطر قرأها بصوت عال دون أن يعرف لماذا فعل هذا.

عزيزي الحاج (عيسوي) ابن الرجل الذى تعرفنا به من سنوات طويلة وكان قريباً منى ومن أبى الباشا الكبير رحمه الله ، حامل هذا الخطاب رجل يحمل كل صفات الأمانة والوفاء وكتوم ، لا يسأل عن أي أمر يكلف به أو لايعينه ، عاش بيننا منذ ميلاده وسبقه أباه وجده الذى. عمل مع جدى رحمة الله عليهم جميعا، أرجو أن يعمل لديكم ويكون ساعدك الأيمن ، ولا تندهش لطلبي ، وتسأل نفسك ، ولماذا لم يستمر مع الأولاد ، الأولاد تعلموا من الصغر بمدارس أجنبية بدول أجنبية ، للأ سف وبكل الأسف لم يتعلموا الانتماء لبلدهم ولأرضهم. ولتاريخهم وأعترف أنى شريك بهذا، أنا لم أكن حريصا على زرع هذا داخلهم، تركتهم يعيشون غرباء وتشربوا حياة وطباعا لا تمت لنا بصلة، وأنا واثق حال تلبية نداء الله أن أول شيء سيفعلونه هو بيع كل شيء ويستكملون حياتهم هم وأولادهم كما هى، ومن أجل هذا قمت بعمل وقف خيرى كبير لبعض أراض مملوكة لي بمدينة (طنطا) وأقمت مسجداً كبيراً يحمل اسمى وألحقته بمعهد ديني ، لعل هذا يكون سبباً في تخفيف وطأة ما حدث، وأرسلت لك (رشوان جابر الصعيدي) ليكمل رحلته معك، وبصدق تام سترى أنه هديتي لك.

كن بخير وتحياتي للأب العظيم.

حازم باشا البدوي

أعاد الخطاب إلى المظروف ورفعه إلى شفتيه وقبله ودمعت عيناه، مسحها بمنديل أخرجه من جيبه ، صمت بعض الوقت وشرد ، ثم ا ستدرك نفسه ، ووجه الحديث إليهم:

* أهلا بك واعتبر نفسك لم تغادر قصر الباشا، وصية الباشا أمانة غالية علينا، رحمة الله كان من أكثر الناس محبة لدينا ومن سنوات، ومعنى أنه يوصى عليك وبك أنك فعلا أهل للثقة، أهلا بك مرة ثانية، اعتبر نفسك ببيتك وبين أهلك ، لست عاملا بل بأمر الله أخا لنا، الكل هنا إخوة.

Edit with WPS Office

نادى بصوت عال (مخيمر يا مخيمر), لم يكد ينتهى من الحرف الأخير حتى وجده أمامه.

* أؤمرني يا حاج.

* تأخذ (رشوان) إلى الحجرتين بالجهة الغربية، وتتأكد من أن كل ش يء جاهز وتمام, وأنت يا (رشوان)، عليك بالراحة أنت والجماعة وعندما تجد نفسك مستعدا تأتى ونتناقش نرى ما يناسبك وقبلها أعرف منك ، من أنت ولماذا هذه الحظوة الكبيرة لدى الباشا، هيا مع (مخيمر)، وكن على راحتك ولا تتعامل كأنك غريب.

* يا حاج كلامك أعطاني إحساسا أنى تركت بيتا لي إلى بيت آخر ل ي لا أشعر بأي غربة، والله والله لا أبالغ ، ربنا يكرمك ويزيدك من عطاءات الله ، أنا مستعد للعمل من الآن إن أذنت ، مثلنا خلق ليعمل بلا تراخى.

* لا تتعجل فالعمل كثير ، وأتمنى أن تكون من عشاق عملنا ، العمل بعشق سبيل للبركة، وواضح أنك ممن يحملون البركة، تفضل وانتظرك بعد أن تنال قسطاً من الراحة ، الوقت أمامنا طويل بأمر الله ، تفضل

سار خلف (مخيمر) الذى قاده إلى مبنى. مكون من حجرتين متسعتين وملحقاتهما من لوازم المعيشة، أثاث نظيف جداً وكل شيء يدل على أن هناك اهتماما بالمكان، دلهم على كل شيء ، وفتح الثلاجة وأوضح لهم أن بها طعاماً يكفى أياما ، ثم تركهم وغادر ملقيا السلام، أخذوا بعض الوقت يتجولون بالحجرات مرة وأكثر من مرة، ألقت الزوجة والأولاد لما يحملونه إلى أحد الأركان ، وألقى كل منهم على الفراش وذهبوا جميعاً بسبات عميق.

Edit with WPS Office

2

محمد عيسوي مفتاح، الشهير (بالبرنس)

منذ أكثر من أربعين عاماً أو يزيد نزل إلى هذه القرية ، حاملا بضاعته من الأقمشة المتنوعة والتى كان يجوب بها القرى والعزب حاملا لها على ظهره، كان هذا بعضا من مشوار طويل من العمل مر به، تقارب مع

Edit with WPS Office

الجميع بابتسامته التي لا تغادره مطلقاً ، بردوده البسيطة وبوده وتساهله كثيراً مع الجميع حتى اكتسب الثقة، كان يختار أي قرية. حسبما تقوده قدماه ، هذه القرية تحديداً وجد قدماه تقوده دوما إليها بكثير من الأيام ، الناس بها يقابلونه بحفاوة تامة، وهو اعتاد على التقارب معهم، والجلوس معهم بالحقول وعلى المصاطب وتناول الشاي أو أي مشروب، يتمازح ويتناقش معهم ويبدى الرأي أحيانا ببعض الامور، كان دوماً شديد الأناقة ، الملابس عنوان صاحبها، هكذا تعلم من (الحاج مختار عويضة) وهو ظل أسيراً لهذه الجملة، دوما حريص على هندامه وعلى أناقته ، كثيراً ما يجلس بينه وبين نفسه يجتر ذكريات وأحداث ما يتذكره من أعوامه السبعين أو ما يزيد عنها، هو أنه من قرية (الجفادون) مركز الفشن ، كان ابنا لأب فلاح يمتلك ما يقرب من خمسة أفدنة من الأرض، ولكنه رغم أنه ليس من كبار الملاك، ورغم أنه لا يجيد القراءة والكتابة إلا بالنذر اليسير نظراً لسنوات تعليمه القليلة التي مكنته فقط من القراءة والكتابة إلى حد ما، إلا أنه كان صاحب مكانة ومشورة بين الجميع، كان البيت لا يخلو إلا ساعات النوم القليلة، كان حكيماً حصيفا يتوسط الجلسات التي تعقد لحل مشكلات القرية وأهلها، مثل الفصل بين حدود الأراضي، أو مشاحنات الأولاد التي تصل أحياناً إلى التشابك والتلاسن، أو تدخل بنزاعات على ميراث أو خلافات زوجية، القرية كانت تحل مشكلاتها داخليا، لا تصعد المشاكل إلا التي لا يمكن حلها إلابالقضاء والقانون، قتل أو هتك عرض وما شابه، المصاطب التي كانت تحيط بالمنزل تمتلئ دوماً بالرجال يتسامرون ويحكون عن حكايات اليوم والأمس القريب والبعيد وحكايات من الزمن السحيق تناقلت بين الأجيال، كنت تراه يتقدم مشهد الاحتفال بالمولد النبوي الشريف ممسكاً بإحدى الرايات ويتمايل يمينا ويساراً وذاهبا بعالم غير العالم، وبالمناسبات الدينية تجده أول المتواجدين، وبالأعياد يجلس أمام باب البيت وأمامه مائدة عليها أنواع شتى من الحلويات والتمور، أم أصل الإجابة هل كان يقلد العمدة بهذا أم العمدة هو من كان يقلده؟, لأن العمدة كان هو الوحيد الذى كان يفعل هذا وإن كانت مائدته أكثر اتساعا وبها صنوف أكثر، ورغم كل هذه المهارة والوقار، كان كل يوم بعد صلاة العشاء يخلع عباءة الوقار ويذهب إلى حيث دكان (رمضان سالم)

Edit with WPS Office

حيث يتجمع عدد من الرجال بعمره أو أكبر قليلا، يتناوبون شرب الشيشة والشاي الأسود، وبعضهم يطلب صنوفا أخرى من الشراب، يأخذ كل منهم بسرد يومه وما نما إلى علمه من أحداث تخص القرية أو غيرها من القرى المجاورة لها، حكايات تطلق قهقهاتهم، أو تجعل عيونهم تذرف بعض الدموع أو الإسراع بالدعوات والترحم على البعض، ذروة عجيج البيت بلا هوادة بمواسم الانتخابات، تجد كل المرشحين يأتون وحشودهم التابعة، يطرقون الباب ويجلسون إليه، يستمعون بكل إنصات لتحليله الأمور الانتخابية، يطلب من المرشح أو أحد تابعيه أن يمسك ورقه وقلما، يمليه هذه القرية ستكون له بنسبة هو يحددها، وهذه لن تعطيه للأسباب كذا وكذا، وربما يكون أكثر وضوحاً يغضب المرشحين أن ليس لديهم حظا بالفوز هذه المرة وأن فلاناً هو من سيفوز، وقليلا ما كانت توقعاته خاطئة، لذا صاحبه لقب الفلاح الفصيح، ومازال بالذاكرة يوماً مشهودا عندما وصل إلى بيتنا العديد من السيارات تعقبها سيارات تهتف باسم مرشح للانتخابات، نزل من إحدى السيارات الشديدة الفخامة ، رجل شديد الأناقة والوسامة تفوح من خطواته روائح عطرية غير معتادة ببلدنا، دخل إلى المندرة الكبيرة المعدة لمثل هذه الزيارات، ما إن جلس وعرض سبب حضوره وأنه يرغب بتأييد أبى، الأب انتصب واقفاً زاعقا بأعلى الصوت، كيف تفكر بالترشح ثانية؟ وأنت لوثت اسمك، إن كنت تناسيت فأهل الدائرة لا ينسون هذا مطلقا، هل نسيت الإثم الذى ارتكبته أنت وبعض زملائك، حينما أتيتم بساقطة إلى شقة أحدكم وفعلتم الفاحشة، والصحافة لشهور أفاضت به، وصرتم حديث مصر كلها، بل إن أحدكم عند مساءلته أمام لجنة القيم بالمجلس لم يتورع ولم يخجل وهو يقدم تقارير طبية بالتأكيد زورها عن طريق أصدقائه تفيد أنه عنين، رجل لم يخجل أن يفضح نفسه أمام الجميع، بجد لا أعرف كيف أتيتم لتمثيل الشعب، زمن به العجب، نصيحة لك تنازل عن الترشح وتوارى عن الناس، هذا أهم من الترشح، خرج الرجل بعدها يهرول مطأطئ الرأس، يجر قدميه بصعوبة بل كانت ترسم خطوطا على الأرض يسنده من الجانبين رجلان من أتباعه، ذهب الجمع الغفير المصاحب له وقد أصيب بالخرس حتى أبواق السيارات أصابها نفس الداء، تنازل

Edit with WPS Office

بعدها عن الترشح وانزوى عن الجميع، شهور قليلة وذهب إلى خالقه ،لم يشعر أبي بأي ذنب، بل تمتم حين وصوله الخبر، لكل أجل كتاب وتعددت الأسباب والموت واحد، ورغم سنوات عمرى القليلة حينها إلا أن الفضول وما أدراك ما فضول الطفولة ، الطفولة هي الأرض الأشد خصوبة للفضول، حاولت الوقوف على القصة بشكل يسبر غور فضولي، تواترت الحكايات وتعددت، ولكن علمت أنه من أسرة لها مكانتها بقرية مجاورة لبلدتنا، لم ينل حظا من التعليم الا الشهادة الإعدادية، كان نصيبه من ميراث والده عدة أفدنة زراعية وطاحونة وشقة بالمركز، ترشح بناء على إيعاز من أصدقائه وأهله، قريته كانت من أكبر التجمعات الانتخابية، نجح ومازال الكل يتندر على ليلة إعلان نجاحة، كان يجلس على كومة قش مع جمع من مريديه وعند إعلان نجاحة فوجئ الجمع به يقوم بحركة (أكروباتية) ويصيح، نجحت يا ولاد، أنا نائب!, حتى أن أحد الصحفيين المشاكسين والتي يكتب زاوية بصحيفة تتبع صحيفة حزبية بعنوان (العصفورة) كتب مقالا يحمل عنوان (النائب الشقلباظ),ورغم أن مكانته هذه كانت من الممكن أن تثير حفيظة البعض مثل العمدة ومشايخ القرية، إلا أنه بفضل كياسته وأسلوبه الهادئ الباسم أبعده تماماً عن كل هذا، بل كان العمدة والمشايخ من رواد لياليه، وينصتون لحكاياته وآرائه وبعضا من السخريات التي يطلقها هنا وهناك والتي من الممكن أن تطالهم أيضا، لكنهم كانوا يشاركونه الجلسات ويشاركونه سخرياته بكل ود وحميمية.

والأم ربة بيت كعادة معظم الأسر الريفية بهذا الوقت من الزمان، نسبة تعليم المرأة لا تكاد تذكر ، أغلب المتعلمات هن من البيوتات الكبيرة، يتوسط إخوته يسبقه أخان ويعقبه أختان وكأنه هو الحد الفاصل بين الذكور والإناث ، ذهب إلى الكتاب. تعلم القرآن وأبجديات القراءة و الكتابة المتكسرة، لم يغادر القرية على مدار أعوامه الخمس والعشرين التي عاشها بها، كعادة أبيه زوجه حينما بلغ العشرين من العمر، كان الأب يقول أزوجهم حينما يصلون لعمر يفهمون معنى الزواج ومعنى تحمل المسئولية، الزواج ليس رجل وامرأة ، الزواج بداية لأسرة جديدة مع الأيام. تكون لها شجرتها الخاصة، ولابد أن يفهم الرجل معنى بناء

Edit with WPS Office

أسرة ، تزوج من ابنة عمه (بثينة عبد الصمد مفتاح)، كانت وقتها بـ السادسة عشرة بالكاد ، وللأمانة كان هو من صغره يتمناها، تربى معها، لعب معها ، عاش معها أعواما خمسة بكل الحب ، كانت جميلة الملامح والخصال، دوما مشرقة الوجه ضحوكة، لم يرها يوماً عابسة أو ممتعضة أو تبدى نوعاً من التذمر ، حتى عندما تشعر بالصداع الذى كان ملازماً لها ولكنها كانت تردد دوماً أنه نتاج الصحو باكراً وكثرة العمل بين المنزل والحقل، حتى عندما كانت تسمع تلميحات شديدة القسوة من أم زوجها، التي كانت دوماً توجه حديثها إلى زوجها وأولادها وإن كان بحقيقته موجهاً إليها ، ما من وجبة طعام وإلا كانت تردد.

* الأرض البور التى لا تثمر ولا أمل في أن تثمر لابد من التخلص منها، والبحث عن أرض جديدة تعطى ثماراً، كلنا نشقى ونتعب من أجل أن نسعد بثمار تعبنا.

كانت تسمع هذا كثيراً ، ولكنها أبدا لم تظهر ألما ووجعا بل كانت تشاكس حماتها بالرد.

* الأرض البور تحتاج لبعض الجهد ومعرفة سبب عدم إثمارها، ثم لله قراره وتوقيتاته، ممكن تكون البذور ليست منتقاة بعناية.

ولكنه كان يعرف أنها تفرغ شحنة وجعها حينما تنفرد بنفسها وعدم وجود أحد بالبيت، تغلق الباب وتخرج مخزون دموعها وتطلق سراحها، ولكنها أبدأ لم تظهر أمامه أو أمام أحد أنها متعكرة ، عندما يعودان من الحقل تتأبط ذراعه مثلما رأت البعض يفعل هذا بالمرات القليلة التي ذهبت بها إلى المركز، تضاحكه وتشاكسه، وإن عاد وهى بالبيت يجدها على أجمل زينتها وبهائها وضحكاتها المليئة حبا ، الأم حينما تنفرد به بعيداً تظل تحرضه على أن يتزوج ثانية، كان كلامها يستفزه ويجعله يحتد عليها ثم يعتذر، يقول لها.

* أليس كل أمر بمشيئة الله، أليس لكل شيء توقيته من الله، دعي الملك للمالك، يا أمي لكل إنسان حظه، نحن نرضى بأمر الله،

تضمه إلى صدرها ، تمرر يدها على رأسه ، تمتم بأدعية الكثير من كلماتها لا يفهمه، تهمس له.

Edit with WPS Office

* يا بني كل أب أو أم يتمنون الخير لأبنائهم، ونحن نريد أن تكتمل فرحتنا بأولاد من صلبك يكونون سندا لك دوما، لا تظن أننا نكره زوجتك ، هى ابنتنا أيضا ومن لحمنا ، ولكن هى طبيعة الأهل يريدون أحفادا يتراقصون حولهم.

* السند هو الله يا أمي ، لكل أمر قراره من الله.

ينهض يتناول رأسها بين يديه وينهال عليها تقبيلا، ثم يخرج يريد هواء يزيح كم الأسى الذى يعانيه كل يوم على يد أمه وكأن كلامها أصبح ضمن الواجبات اليومية، تمضى به الحياة ما بين عمل بالحقل و اختلا س لحظات ليلية للجلوس مع أصدقاء العمر، كل منهم يحكى عن يومه وبعض همومه وبعض الحكايا المضحكة والمؤلمة ، ثم يعود متلهفا إلى زوجته التي تشعره أنه مازال بأيام الزواج الأولى، كل الأيام تمر سواء ببطء أو على عجالة، إلى أن صحا يوماً على لكزات سريعة ومتعددة، وأنين. وبعدها صراخ. نهض فزعا وجدها تمسك رأسها تضغط عليه بشدة والدموع تنساب من عينيها بلا توقف وكل علامات الألم تعلو ملامحها، تصرخ وهو حائر ماذا يفعل؟، أسرع وجاء لها بقرص إعتادت تناوله عندما تأتيها هذه النوبات ولكن هذه المرة واضح أنها أشد، أصابته صاعقة الدهشة، جلس القرفصاء بجانبها على الفراش ، أخذها بحضنه يربت عليها، يمسح دموعها بكفه، يكاد يشاركها البكاء ، فجأة وجد جسدها يتراخى بين ذراعيه ، ونال منها الإغماء ، أنامها على الفراش ، فتح باب حجرته وصرخ مناديا على أمه وأبيه وإخوته ، أتوا بهرولة بعضهم مازال يحمل بعينيه آثار النوم، لم يستطع الكلام، فقط أشار إليهم إلى داخل الحجرة ، دخلت الأم وزوجات الإخوة ، (بثينة) مغمى عليها لا تشعر بمن حولها ، مجرد صدر يعلو ويهبط يطمئنهم على أنه مازال ينبض ، صاحت الأم تطلب منهم الذهاب إلى منزل الدكتور (ناجى عطية) القريب من بيتهم، هرول الجميع بلا انتظار، الأب جلس متكيء إلى الحائط يتلو ما يحفظ من سور القرآن وبعض الأدعية ، جاءوا وبأعقابهم الدكتور بزيه المنزلي ، أسرع بالدخول طلب منهم مغادرة الغرفة إلا الزوج فقط معه بالداخل، طال الوقت والدكتور مستمر بـ الفحص ، كل لحظة تتغير ملامحه ، تعلوه علامات الحزن، بعد وقت طال وفاض بهم الانتظار خرج إليهم.

Edit with WPS Office

* نحتاج إلى نقلها إلى مستشفى حالا وبسرعة لإجراء فحوص شاملة. وتحاليل وأشعات، سوف أذهب لإحضار سيارتي لنذهب سريعاً نحن بحاجة للوقت.

وأعطاهم ظهره منصرفا بهرولة، تركهم نهبا للقلق وآلاف التساؤلات، قامت أمه بتبديل ثيابها بمساعدة زوجات الإخوة ، وهى لا تعي شيئا ، الأمر كان غاية بالصعوبة، علا صوت السيارة وبوقها المتصاعد ، أسرع بحمل زوجته على ذراعيه، جلس بالمقعد الخلفي. وضع رأسها على صدره وجسدها ممدد على المقعد، صاحبه الأب الذى أصر على تواجده معهم. فهي ابنة أخيه طالبا من أولاده عدم إخبار أحد إلا بعد تشخيص الحالة، وصلا إلى المستشفى، على بابها يقف ممرضان معهما ما يتيح وضعها عليه ونقلها إلى الداخل، الكل يهرول بها إلى حجرة الفحص، طال الوقت وهو يذهب ويجئ وكل لحظة يخبط رأسه بكفه، ويتمتم بكلمة يارب وحيدة، خرج الطبيب وجهه ينطق مما قد يكون قد حاول إخفاءه، ذهب على الفور إلى حيث يقف (محمد) شاردا لا ينتبه إلى أي أمر محيط به، التفكير يأخذه إلى الذهاب بعيداً لأمور لا يتمناها ولا يريدها، ولكن صدره يوجعه يكاد يطبق على أنفاسه، أخذه بعيداً بعض الشيء عن الجميع، انزوى به جانباً قصيا، وضع يديه على كتفيه، مال عليه هامسا.

* آسف إن قلت لك إن الشواهد تقول إن الأمر ليس بجيد على الإطلاق، ولكن الأمر سيتضح أكثر بعد إجراء الأشعة والتحاليل اللازمة، ما عليكم الآن إلا الدعاء، هل كانت تشكو من شيء ولم يتم الاهتمام؟

* والله يا دكتور كثيرا ما كان يصيبها الصداع، ولكنها كانت تقول إنه أكيد بسبب العمل والحركة طول النهار بين بيت وحقل وأمور أخرى، لم نتصور أبدا أن تصل لهذه الحالة.

* فهمت الصداع كان مؤشرا كبيراً لمرضها الذى استفحل من جراء عدم ا لاهتمام، عامة ربنا ييسر الأمور قادر على كل شيء، لا تقلق أنا سأتابع كل شيء يخصها، سوف أذهب لأحضر الطبيب المختص ليفيدنا أكثر، ا طمئن.

وربت عليه وأخذ طريقه تاركاً له دموعا طفرت من عينيه ونشيج بكاء جعله يرتعش وينتفض، أسرع أبوه وإخوته يحيطون به يتساءلون عما

Edit with WPS Office

به، أخبرهم بحديث الدكتور، انتقل وباء قلقه ودموعه إليهم، أخذه الأب بين أحضانه مرددا وهو يمرر يده على رأسه.

* قل لن يصيبنا إلا ماكتب الله لنا، ندعو لها بالشفاء، اللّه قادر على كل شيء.

جلس القرفصاء، وضع رأسه بين ساقيه، تتصاعد دعواته بصوت عال بصوت متهدج مصحوب بدموع وحشرجة صوت، الأطباء يذهبون ويجيئون مما يزيد من مساحات القلق لدى الجميع، سمعهم مرة يقولون إنها مصابة بورم بالمخ وأن اكتشافه كان متأخرا جدا، هو لا يفهم ماذا يعنى هذا المرض ولكنه أيضا يستشعر بأن الأمر خطير، نبراتهم وقسمات وجوههم تنبئ بهذا، نقلت مرات ومرات إلى حجرات الأشعة ومعامل التحليل، عينه تتابع تنقلاتها وترسل التساؤلات إلى الأطباء، لا أحد يجيبه ، ولكنه يلمح علامات تزيد من قلقه، أربعة أيام وهو قابع بالممر أمام حجرتها، كل ساعة يدخل إليها، يتأملها وجهها هو هو لم يتغير، الوجه المشرق الضحوك، يكذب مرضها ويهمس بداخله، هي نائمة ربما نوم طويل لجهد سنوات، يخرج باكياً يمسح دموعه بأكمام جلبابه ويعاود الجلوس، الأب والأخوة وأهلها والكثيرون من أهل القرية يأتون على فترات يجلسون وقتا وينصرفون، صديقه (مكرم) هو الوحيد الذي أبى أن يتركه وحيداً، هو من كان يتولى إحضار الطعام والعصائر ويظل يلح عليه كثيراً حتى يتناول قليلا منها، بفجر اليوم الخامس، كان قد غفا قليلا دون إرادته، صحا على ربته خفيفة على كتفه، نهض ولديه إحساس بأن هناك أمر ما، كان الدكتور (ناجى) الذى أخذه بين أحضانه، وأخذ يربت عليه بشدة، همس له.

* البقاء لله شد حيلك، عملنا كل ما نستطيع ولا راد لقضاء اللّه.

وجد الدنيا تلف وتدور به، عيناه لم تعد تبصر، كل الصور يراها ضبابية، أصابه الإعياء ، قدماه لا تحملانه، كاد يسقط لحتفه (مكرم) أجلسه إلى مقعد، وجلس بجواره حائرا وقد شل تفكيرهما، ماذا يفعلان؟، تشاركا الدموع، ما إن بزغت الشمس حتى جاء الإخوة والأهل يتساءلون عن الجديد بحالتها، أجابهم بدموعه وصوت لا يسمع.

* (بثينة) ماتت.

Edit with WPS Office

علا الصراخ من النسوة وعلا صراخ الرجال والبكاء يتصاعد من الجميع، هو لم يعد يشعر بشيء مما يحيط به، أصابه نوع من فقدان الذاكرة، شعر كأنه في تيه، لا يعرف من هو؟ وما الذى يحدث من حوله؟، أشباح وظلال وأصوات تأتى من هنا وهناك لا يفهم ماذا تقول أو إلى ماذا تشير ؟، بلا إرادة تساند على صديقه (مكرم), الدكتور (ناجى) كان يهرول من مكتب إلى آخر لإنهاء إجراءات التصاريح وما يلزم لاستلام الجثمان، خرجوا بالجثمان إلى سيارة إسعاف، أسرع هو إلى القفز بداخلها، رفض أن يكون أحد معه، صرخ بهم عاليا.

* أريد أن أكلمها وحدى.

جلس بالسيارة محتضنا الجسد المسجى على محفة، يبكى بحرقة دموع ساخنة تخرج من صدره، يصرخ،

* تركتيني وحدى لماذا؟ ألا تعرفيني أنى بعدك ميت؟، ربنا يرحمك، عمرى ما تخيلت أنى أعيش هذه اللحظة، لحظة قاسية، فقدان الحبيب والوليف والأنيس، ليتني سبقك بالرحيل ، فقدت كل الحياة من غيرك، كل المر سكنني ، ردد هذا كثيراً، وصلت سيارة الإسعاف حتى المسجد الكبير للصلاة على الجثمان، المسجد محاط بكل أهل القرية والقرى المجاورة والتوابع، صحن المسجد ملئ بالكثيرين، لا موضع لقدم، النسوة اتشحن بالسواد شابات وعجائز وقفن على رؤوس الشوارع والحارات يلطمن ويصرخن، وقف وسط إخوته على باب المسجد يستقبل القادمين لحضور الجنازة يسبقه بـ الوقوف أبوه، هو غير واع لما يرى، يده ترتفع للسلام آليا، وهناك من يعانقه ويحتضنه، وهناك من يربت عليه، أقيمت الصلاة، كان بالصف الأ ول يجاور أباه وإخوته وأعمامه، طال وقت الصلاة، قدماه لا تحملانه، يشعر بأن جسده رخو، كاد يقع، أسرع إخوته بالإحاطة به، خرج الجثمان يحمله إخوته قدماه ترسمان خطوطا على الطريق كأنه يشهد الطريق على أنه تابعها حتى النهاية، أسرعوا بمواراة الجثمان الثرى، وبدأ أحد فقهاء القرية تلاوة الأدعية للميت والجميع يردد وراءه، هو يجد نفسه أشبه بالبغبغاء يردد ولا يعي، انتهت مراسيم توديعها، الكل أخذ طريقه إ لى الانصراف، كأن الأمر عملا أو شأنا وظيفيا انتهوا منه، حقيقة صدق من قال لا يشعر بالوجع إلا صاحبه، ولا يحس بألم لسع النار إلا من يقبض عليها، رفض كل محاولات الأب والإخوة المغادرة، صرخ بهم ط البا تركه وحده، الجميع غادر على مضض، استلقى على المقبرة فاردا

Edit with WPS Office

ذراعيه كأنه يحتضنها، أخذ يتمتم بكلمات مبعثرة لا رابط بينها، أخواه وصديقة (مكرم) جلسوا على مقربة منه، يراقبونه والدموع تكحل أعينهم ، حائرون لايدرون ماذا يفعلون ؟؟ ، لم يحاولوا الاقتراب منه كثيراً، مثل هذه اللحظة تحتاج الانفراد بالنفس ، أخذه النوم ولم يشعر بالوقت إلا عندما لسعه برد الليل ، نهض متحاملا على نفسه، حاول الوقوف خذلته قدماه، كاد أن يقع، لحقه الإخوة وأحاطوا به من الجانبين وصديقه بالخلف، أسندوه وساروا به، إلى حيث أقيم سرادق العزاء الذى أصر الأب على إقامته بما يليق بهم،، على مدار أيام تقارب ا لأسبوع وأفواج المعزين لا تقطع، السيارات والركائب تأتى مكدسة ، وهو لا يشعر بأي شيء من حوله، هو هائم بعالم آخر يعيش لحظات ا سترجاع الماضي منذ أن كان صغيراً يلعب معها، ويتشاجر مع الجميع من أجلها ، كان يمنع الكل من الاقتراب منها، حتى أطلقوا عليه، حامى الحمى، يتذكر كل الشريط الحياتي والدموع تعبر عن وجع ذكرياته ، زهد الطعام والشرب ، بالكاد كانوا يلحون عليه لتناول بعض اللقيمات. تعينه على صلب طوله، أصبح بأيام ناحلا شديد الشحوب، برزت عظام وجنتيه ، زائغ العينين ، لا يدرك شيئا مما يحيط به ، الأب طلب من إخوته والمقربين منه ألا يتركونه وحيدا ولكنهم لم ينجحوا كان رافضاً لكل شيء ، أغلق عليه باب حجرته ، يجلس القرفصاء فوق فراشه، كثيراً ما يدفن رأسه بحجره ويجهش بالبكاء ، الأب والأم والأخوة يدخلون إليه، يتحدثون إليه وينجرفون بالحديث إلى أطراف شتى لإ بعاده عن الوجع ولكن هيهات ، كان كثيراً ما ينتفض زاعقا بهم.

* اتركوني وحدى لا أريد أحدا ، أنا تعبان .

ولم يكن أمامهم الا الانصياع لطلبه ، صار خيالا يسير على قدم لا تعرف الرسوخ على الأرض ، كان كل صباح يتسلل ويذهب إلى قبرها ، يروى ما يحيط به من بعض الأشجار والورود، ويجلس يذكرها بما كان من لياليهم وأيامهم، تنتابه حالات من الضحك الهستيري للحظات ثم يرتد سريعاً إلى البكاء بشدة، ظل على هذا الحال لأيام طويلة، عازفا عن كل شي، الكل يحاول التهوين عليه ولكنه ظل أسير الحزن المميت، ليلة لا ينساها وجد نفسه ينهض قافزا، يخرج بعض ملابسه يضعها بصرة قماشية، ويخرج مبلغا ماليا كان بموضع كانت قد اختارته لوضعه قائلة.

Edit with WPS Office

* لابد من عمل حساب لأى ظرف طارئ.

وضعه بجيبه، الوقت قد تجاوز منتصف الليل، خرج متسللا، غير محدد لهدف للذهاب ، الهدوء يسود القرية بكاملها مع عباءة ظلامية تحيط بكل ربوعها إلا من بصيص أضواء قليلة تنبعث من خصاص النوافذ غير جيدة الإغلاق، ونباح الكلاب التي تتشاكس مع بعضها أو أن الوقت سامح لها بالتعبير عن ذواتهاورغباتها، سار متخذا الطريق إلى حيث الطريق الرئيسي للقرية التي تمر عليه بعض السيارات ذهاباً وإياباً، وقف بانتظار ما يرسله الله من وسيلة مواصلات تذهب به إلى أي مكان بعيد عن هذه الذكريات التي تلازمه، فهي تحيط به من كل جانب، كل مكان بـ القرية شاهد على ذكرى لهما، طال انتظاره، جلس أرضا، من بعيد جاء ضوء مبهر لسيارة قادمة، وقف ملوحا بكلتا يديه، السيارة مسرعة، ربما بل من المؤكد قد تتجاوزه، ولكن خاب ظنه، بلحظة علا عويل فرامل السيارة التي أوقفها قائدها أمامه أو أبعد منه قليلا، فتح النافذة قائدها صائحا.

* يا بلدينا إلى أين أنت ذاهب؟.

* إلى بلاد الله، هل لك أن تأخذني إلى أقرب مدينة؟.

الرجل لم يعقب، شعر أن به وجعا كبيرا، لم يعاود السؤال وأشار إليه بالركوب، .الصمت ران عليهم تماما، مجرد عيون تدور في محجريهما تتبادلان النظرات بين الفينة والفينة، السيارة شديدة الفخامة ، روائح عطرية نفاذة. المذياع مؤشرة على القرآن الكريم، تستمر النظرات المتسائلة التي لا تجد إجابات، صاحب السيارة يعتنق مبدأ أن لا يبدأ أي حديث، كثيرا من الناس لا يحتاج نكأ آلامه وهذا الرجل ومن الواضح أنه يمر بحالة ألم شديدة ، دفع إليه بابتسامة ودودة ظهرت على محياه، ظن أن البسمة قد تفتح شهيته للحديث، ولكن الحال ظل كما هو، لا حديث، اضطر بعد فترة أن يسأله.

* طريقك أين يا بلدينا؟

لم ينل الإيجاب، فوجئ به يضع رأسه بين كفيه ويجهش بعنف بالبكاء، صاحب السيارة لم يجد أمامه إلا الوقوف جانباً وإشعال ضوء صالون السيارة، ربت على كتفه مرات عديدة، خاطبه.

- اهدأ يا ابنى، لا شيء يستحق شيئا من الوجع، أعرف أن هناك

Edit with WPS Office

أوجاع لا تنسى ولا تندمل بسهولة، ولكن بالنهاية كله يمر ومع الأ يام يقل ألمنا، كل واحد من الناس له جانب من الألم، لا يوجد من يخلو منه، ولكن علينا بالصبر والتحمل فكل شيء من أقدار الله، اعتبرني أبيك وفضفض، لعل الله وضعني بطريقك أو وضعك بطريقي لحكمة هو يعلمها، ولعلني أكون سببا يعلمه الله ليفرج همك، وتكون سببا بخير لي لا يعلمه إلا الله تكلم لكل أمر سبيل للخروج منه.

زادت مساحات البكاء لديه واتسعت رقعة نشيجه الحاد، الرجل اكتفى بـ الربت على كتفه طالبا منه الهدوء، بعد جهد تكلم وحكى كل شيء للرجل ، سار بالسيارة حثيثا، أخذ بالحديث عنه حتى يهدأ.

* أنا (محفوظ العربي) تاجر (ماني فاتورة)، أقمشة وملبوسات ولوازم تجهيزات العرائس، الحمد لله لي أكثر من محل، المحل الرئيسي بالغورية، يا بني لكل منه رحلته بين الفرح والألم لا تتخيل أن هناك طريقا واحداً للألم أو للفرح، لكى تكون ناضجا لابد من التقلب بين هذه وتلك، دع الملك للمالك، أنا عائد من واجب عزاء في أحد عملائي بقرية (آبار الملك) مركز (أخميم)، الرجل كان عندي من أسبوع موفور الصحة والعافية، ولكن لا نملك من أمرنا شيئا، قل يارب، مهما كان الوجع لله قراره وله حكمته، وعلينا أن نرضخ لمشيئته، يا الله لو علمت ما عانيت تقول كما يقولون من رأى ظروف من حوله يحمد ربه على ما هو فيه عشت يتيما، وعملت وأنا صغير جدا بكل المهن ما يخطر بها على بالك وما لا يخطر، واجهت كل شيء صعب من الأقارب ومن غير الأقارب، ولكنى رغم أنى كنت صغيرا، ولكن الله ذكرني بكلمة سمعتها من أحد الشيوخ أثناء درس بعد صلاة أن الإنسان عليه أن يتحمل وعليه أن يتجاهل الوجع ويتعلم منه وأن لا يلق بالا لمن ينثر الغبار بطريقه، فلا تدع نفسك الوجع والحزن، كل هذه أمور مقدره من الله وما علينا إلا أن نحمده وأن يهون علينا.

وسكت ونظر إليه، أكمل.

* لن أضغط عليك، عندما تريد أن تتكلم تكلم، لكن إلى أين أنت ذاهب؟

* والله يا حاج لا أعرف إلى أين ؟

نظر إليه بكل ألوان الدهشة بنظرات متسائلة.

* كيف يا ابنى.

Edit with WPS Office

وجد نفسه يعاود البكاء، تركه الرجل يخرج ما بداخله، مسح دموعه بأكمامه، خرج الحديث منه متقطعا، حكى له حكايته دون إخفاء شيء، بين اللحظة والأخرى الرجل يمد يده يربت عليه، عندما انتهى وألقى برأسه على مسند المقعد مغمضا عينيه، تركه الرجل لفترة ثم حدثه.

* الله معك يا بني أقدر حزنك، وحتى لا تزداد معك أيامك صعوبة وتزيد مساحات حزنك، سوف أعرض عليك عرضا لك أن ترضى به أو لا ترضى، أولا أنا مؤمن بالقدريات، وأجزم دائما بأن اللقاء بيننا قدر ولله حكمته بكل شيء، لذا سوف تكون ضيفي لأيام تستعيد هدوءك ونفسك للوقت الذى تريده وبعدها لنا حديث، والله صاحب القرار، عامة يا ابنى الدنيا لا ثبات لها، هي مثل الأرض الرخوة ممكن تذهب بك شرقا أو غربا ممكن تنال حلوها لفترات لا يعرف إلا الله مداها، ونفس الحال مع مرها، لازم الإنسان يتقلب بين حلوها ومرها حتى يصبح قادرا على التعامل معها، ونحن نسير حسب ما رسمه الله لنا من أقدار، الدنيا كأس مترع بالكثير من الأوجاع والملمات والقليل من الأفراح والمسرات، وما عليك إلا أن تترك أمورك لله وحده، الفقدان أكيد صعب ولكن عندما تسمع حكايات الآخرين تهون عليك الأمور،

سيأتي يوم وتعرف حكايات كثيرة ومنها حكايتي، وترى أن هناك أحزانا وأوجاعا أكثر ألما،

الله قادر على إخراجك من حزنك وتوجيهك لطريق تجد به الدواء والسعادة.

عاود الصمت فرض هيمنته عليهم، أغمض عينيه وأطلق العنان لغفوة ذهبت به لبعض الوقت، لم يفق منها إلا على ربتة يد الرجل، فتح عينيه وجد السيارة تقف بمواجهة بوابة كبيرة فتحت بمجرد أن أضاء الرجل أنوارها مرتين، دخل بالسيارة ممرا يصل بها حتى درجات سلم البيت الواضح والدال على مدى ثراء الرجل، نزل من السيارة ووقف جانباً، الحاج (محفوظ) بمجرد نزوله أشار إلى من قام بفتح البوابة، أتاه مهرولا واقفا على بعد خطوات.

* أوامرك يا حاج.

* تأخذ (محمد) إلى الحجرات الشرقية، وترى أن كل شيء موجود، هو ضيفنا، دعه ينام كما يحلو له، هو بحاجة لنوم طويل، وعندما يصحو بأي وقت يفطر وتجعل (محروس) يأت به إلى المحل الكبير، مفهوم يا

Edit with WPS Office

(مغاوري)

* مفهوم يا حاج.

* تصبحون على الخير.

وأولاهم ظهره صاعدا درج السلم، سار خلف (مغاوري) حاملا صرة ملا بسه صامتا يتجول بعينيه بالحديقة التي تحيط البيت والأضواء التي تتلألأ على أسوار البيت تجعل الليل أشبه بالنهار، بعد مسير دقائق توقفا أمام مبنى دور واحد، مد (مغاوري) يده داخل جلبابه مخرجاً مفتاحا، أولجه داخل الباب وفتحه، أخذ جانباً ليسمح بمروره، دخل وراءه مشيراً إلى حجرة النوم المتسعة والمجهزة من كل الاحتياجات، وأشار إلى المطبخ وفتح الثلاجة مشيرا لوجود كل متطلباته، وبعدها سأله.

* هل تحتاج أي شيء أخر؟.

شكره، انصرف (مغاوري), تجول قليلا بالمكان، بعدها نزع حذاءه وألقى بنفسه على الفراش وذهب برحلة نوم عميق لم يستطع الأرق أن ينغص عليه نومه، كان بالفعل بحاجة ماسة للنوم، لم يشعر بأي شيء، أفاق من نومه وفتح عينيه يتأمل، نظر إلى النافذة الزجاجية وجد الظلام يلف كل شيء، تعجب من طول فترة نومه، رغم أنه يشعر بجوع وظمأ شديدين، هو لا يتذكر متى تناول الطعام آخر مرة، تجاوز عن حاجته للطعام و الشراب، وأسرع للاغتسال وتوضأ، قام بأداء عدد كبير من الصلوات، هو لم يعرف عدد الصلوات التي فاتته، فزاد من صلاته، أخذ بعدها بالدعاء و الشكر، أن وضع بطريقه رجلا يتوسم فيه الإنسانية والشهامة، بعد الصلاة أخذ طريقه إلى الثلاجة، أخرج منها بعض الطعام، لم يبحث عن صنوف بعينها، أخذ ما صادف يده، تناول طعامه شرب كوبا من الشاي، ثم أخذ طريقه للخروج، وجد على مسافة قريبة منه (مغاوري) جالساً أمام نار أشعلها داخل وعاء كبير من الفخار، بحثا عن دفء يزيل برودة الليل، ا قترب منه وجلس بجواره ملقيا السلام، مد (مغاوري) يده متناولا إبريق الشاي القابع دائماً على النار، صب له كوبا، ناوله له متفرسا وجهه، دون حديث، فرض الصمت هيمنته لحد كبير عليهما، اكتفيا بتبادل النظرات، ولكن (مغاوري) المعروف عنه شدة الفضول لمزيج من فتح مسام

Edit with WPS Office

الحديث.

* ماحكايتك يا بلدينا؟

رد عليه بنظرة شديدة الحدة وكأنه يطلب منه عدم السؤال، ولكنه لكى ينهى المسألة.

* يا بلدينا لكى منا حكايته، ملابسنا تخفى الكثير من الحكايات، دع لكل منا ما يخصه وعندما يريد الله أن نخرجها من صدورنا ستخرج دون طلب، لا تظن أنى أحمل أمرا غريبا، مثلي مثل الجميع، بي وجع وبي جانب من الفرح.

عاد الصمت يلفهم من جديد، تناولا شرب الشاي مرات، نهض بعدها قاصدا الذهاب للمكان الذى خصص لسكنه، أخبره (مغاوري) قبل إنصرافه.

* الحاج كان طلب مني أن تذهب إليه حال صحوك ولكن النوم أخذك لبعيد، بالصباح بأمر الله تذهب إليه او ربما تذهب معه.

أومأ إليه برأسه، وأخذ طريق العودة، ألقى بنفسه على الفراش محاولا ا ستعادة النوم، ولكن هذا لم يطاوعه، شرد كثيراً بأمسه، بلحظات طفولته وملازمته الدائمة مع (بثينة) حتى وصلا للصف الرابع، بعدها قرر الجد أنه حان وقت التفريق بين الصبى والصبية، كان يكتفي بإرسال النظرات من على بعد، لم يكملا التعليم بعد الصف الرابع، هو أساسا كان لا يرغب بالتعلم، شأنه شأن الكثيرين من أبناء القرية فى هذا الزمن، كان يتلظى من بعادها ووأد أي محاولة للاقتراب منها أو الحديث معها، تحمل حتى وصل لعمر التاسعة عشرة، مازال هذا اليوم تحديداً ماثلا أمام عينيه، كان يقدم خطوة ويتراجع خطوات، ساقاه مرتعشتان، كانت أمه تجلس جلستها المعتادة على إحدى الكنبات بصحن الدار، تلفت يمنة ويسرة ليتحقق من عدم وجود أحد، جلس مجاورا لها، الكلمات تأبى الخروج من لسانه وكأنه أصيب بالخرس، بعد وقت نهض وأمسك برأسها وقبله قبلات متعددة، قابلتها الأم بضحكات متعالية، ونظرت إليه نظرة مشجعة للسانه على الحكي، أطرق رأسه إلى الأسفل، خرجت الكلمات تسمع بالكاد.

* أمي أريد الزواج من (بثينة) ابنة عمى.

Edit with WPS Office

مدت ذراعها وضمته إليها بقوة ومررت يدها على رأسه، همست له وهى ترفع وجهه إلى وجهها.

* ولماذا لم تخبر أباك؟، الأمر ليس به خجل.

* الأم خير طريق لقلب وعقل الأب حتى لو عاند بعض الشيء.

اتسعت بسمتها وربتت عليه ببعض القوة.

* عندك حق النساء مفاتيح الرجال، لا تقلق الليلة أفاتحه وأظنه لن يرفض وحتى عمك أيضا سوف يرحب، الكل يعلم أنكما من صغركما متقاربين .

سارت الأمور سيرها الطبيعي، الأب لم يبد أي ممانعة بل رحب بشدة، و العم كان ينتظر هذه الخطوة أو كما قال فيما بعد أنه كان يرى رغبة ابنته مرسومة على وجهها كلما لمحت (محمد), بظرف أيام قليلة تم إعداد الحجرة وشراء القليل مما يلزم، السرير والدولاب وبعض أواني المطبخ وملابس للعروس، أتت إلى بيتهم حاملة معها كل البهجة، دوماً ضحوك، حتى لو كان هناك بعض الكلمات المؤلمة التي تأتى بسياق الكلام من أمه أو من زوجات إخوته، كانت تضحك ولا تلق بالا لما سمعت، السنوات التي عاشها معها كانت بمثابة العمر كله، لم يكن يعي أن هذه الصفات تشير إلى أنها ابنة موت كما يقولون، طفرت دمعات من عينيه، لم يفق منها إلا على طرقات الباب وصوت (مغاوري) يناديه بعلو.

* (محمد) الحاج ينتظرك.

قالها مرات وغادر، انتفض من جلسته وأسرع للاغتسال، وارتدى جلبابه سريعا وأخذ طريقه إلى الباب، قذف بنفسه خارج الباب بهرولة، أبصر الحاج جالساً على مقعد أمام باب البيت مرتديا بدلة أنيقة تعلوها عباءة موشاه بخيوط ذهبية تزيده فخامة، يمسك عصا أبنوسية عندما اقترب منه وجد بها نقش لرأس صقر، وقف قبالته مطرقا متمتما بصوت شديد الخفوت.

* صباح الخير، أوامرك يا حاج.

نظر إليه نظرة فاحصة.

Edit with WPS Office

* هل أخذت وقتك بالنوم بشكل يريحك.

* الحمد لله بالحقيقة لم أشعر بحالي، أول مرة أنام بهذا الشكل.

* أنت كنت بحاجة لهذا النوم، هل أفطرت؟

* لا والله نفطر فيما بعد.

* إذا تعال معي، نذهب إلى المحل الكبير، نفطر سويا ونرى ما الذى يمكن أن تعمل به، إذا كانت بك رغبة؟

* يشرفني يا حاج، أنا تحت أمرك بما ترى من اللحظة .

ركبا بالمقعد الخلفي للسيارة، لم يتبادلا أي حديث، مجرد نظرات متبادلة على استحياء، استمر الحال طويلا، وبلحظة وجه الحاج الحديث له.

* تعرف ابننا أنني ألمح بك بعضا منى، ولا تسألني كيف، الله هو من يوجه خطواتنا، أريد منك أن تنغمس بالعمل، العمل هو خير دواء للأحزان والأوجاع، أعرف ما بك من وجع ولكن هكذا الدنيا كما قلت لك لا تسير على وتيرة واحدة، وما علينا إلا أن نجيد التعامل معها حتى لا نتوه بدواماتها، لكل أمر بداية ونهاية مهما كان وجعه وألمه، اترك أمورك لله.

* لتكن مشيئة الله، الله أعلم بالقادم.

تبادلا الحديث بأمور عديدة، حتى يخرجه من الحالة التي يعيشها، وصلا إلى المحل الرئيسي

بالغورية، أسرع (محروس) بالقفز من السيارة مسرعا ً بفتح الباب، نزل الحاج ونزلت خلفه،

وضع يده على كتفي ضغط على ببعض الشدة.

* ما إن تطأ قدمك هذا المكان، حاول أن تجعل الماضي يرقد بسلام، فالماضي هو الموطن الأساسي للألم، دوما ً به الكثير من الوجع والقليل من الأفراح لنكن منصفين، اطوى صفحته بأسرع وقت وحاول بناء حياة جديدة.

اكتفي بهز الرأس، سار وسرت وراءه، دخل المحل، يلقى السلام هنا وهناك وهو يعرفني عليهم، هذا (جوهر، مصباح ، بدوى، فهيم، عدلي) وكثير من الأسماء،

Edit with WPS Office

الكل يهلل ترحيبا به، ترحيباً لا يحمل أي شائبة تملق.

* كل العاملين هم وبكل المحلات من قريتي، لهم حق على، كن حريصاً عندما تبتسم لك الحياة أن تحتمى بأهلك، خيركم أنفعكم لناسه. أسرع أحد العاملين بإحضار كرسي له، أشار إليه بإحضار آخر، أسرع بالتلبية، أمرني بالجلوس، كل أصحاب المحلات المجاورة له يأتون للسلام عليه وتحيته بحميمية مطلقة صادقة، يشاكسونه ويلقون عليه بعض الإفيهات والنكات الكثير منها برئ، والقليل به إيحاءات ذكورية، تعلو الضحكات تعطر اليوم، يلقى تعليماته بصوت خفيض، يأتيه البعض بفواتير يتأكد من صحتها بالسؤال، وأيضا أذون صرف بضاعة من المخازن، يقرأ على مهل قبل أن يوقع، تأتية بعض المكالمات على التليفون الأرضي الذي يأتي به عامل ويضعه أمامه، لا يكاد يلتقط أنفاسه، ولكنه أبدا لا يبدى تبرما أو ضيقا، الأمور تسير بسلاسة تامة، عندما ارتفع صوت الآذان لصلاة الظهر، رفع يده بحركة يبدو أنها متعارف عليها، أسرع البعض بإحضار بعض قطع السجاد وفرشها بأحد الأركان، قسم العمال إلى قسمين، قسم يؤدى الصلاة، وقسم يتعامل مع العم لاء، البعض أسرع للوضوء, . بعض

المترددين على المحل شاركوا بالصلاة، أم هو المصلين، كان صوته بالتلاوة يذهب بالجميع إلى حالة خشوع تام، أخذ وقتا طويلا بالصلاة، بعدها أخذ جانباً وأخذ يدعو همسا، جلست قريبا منه أترقبه، رأيت وجهه مضاء، رغم وجود بعض الدموع تملأ عينيه، أشار إلى، تساند على، وضع يده على كتفي وسار، همس لي.

* مهما يكن لا تترك فرضا من فروض الله، هي بركة ودليل على السير على الطريق الصحيح، عدنا إلى نفس الجلسة، بعد حين نادى أحد العمال آمرا له بـ الذهاب لإحضار طعام الغذاء، وقت قليل وأتى الطعام فيما يبدو أن صاحب المطعم يعرف متى يقوم بتجهيز الوجبات،

يوزع بنفسه الطعام، يكون آخر الجلوس بعدما يسأل.

* هل الطعام كافي؟

عند العصر ، نادى.

* يا (عنتر)

جاء رجل تجاوز الأربعينات، لم يتكلم، وقف انتظارا لتعليمات الحاج.

* *تذهب مع محمد إلى مخازنا، وتقول لعمك (بهيج) أن يعلمه كل شيء عن*

Edit with WPS Office

المخازن، وطمأنه أيضا أننا لن تبعده فأنا أعرف وسوسته.

تقدمني (عنتر) إلى سيارة، قفز داخلها، ركبت وسار بنا سريعا، يتفرس بوجهي، و أنا نفس الحال، لم يسأل وإن كانت كل ملامحه تنطق بفضوله، اكتفى بسؤال.

* هل أنت من بلدنا؟ أو من أجوارها؟ كل العاملين هنا من بلدنا.

* أنا من الصعيد.

استمر سيرنا لقرابة العشرين دقيقة، توقفت السيارة أمام باب من الفولاذ، لمبنى شديد الاتساع

يدل عليه هذا السور المرتفع الذى يحيط بالمبنى، نزل (عنتر) وكنت خلفه، وقف أمام

الباب مناديا :.

* عم (بهيج).

ولما رأى دهشتي من ندائه الذى يسمع بالكاد.

* عمك (بهيج) يكره أمرين، أن تكرر النداء أو أن يكون الصوت مرتفعا.

دقائق معدودة وخرج إلينا رجل تجاوز السبعين على الأقل، طول فارع، منحنى قليلا

عند الكتفين، أخذ يتفرس بي كثيرا، من كل زوايا الرؤية، بعدها سأل.

* ماذا هناك يا (عنتر)؟

* الحاج يخبرك أن تعلم (محمد) كل أعمال المخازن، ويخبرك أيضا أن لا تخشى فهو لن يحل محلك

عاود الرجل التفرس بي ثانية وكأنه يرغب بمعرفة داخلي قبل ظاهري، أشار إلى (عنتر) بالمغادرة وإلي أن أتبعه وماكان مني إلا أن أفعل ، دخلت الى المخزن، مساحة كبيرة جدا جدآ، وعمال يقومون بصف الأ صناف كل بمكانة، مكتب كبير يتوسط المكان يتيح الرؤية من كل الزوايا ، المكتب تعلوه الكثير من السجلات، جلس وأشار إلى بالجلوس، سألني.

Edit with WPS Office

* هل تشرب شايا؟

أجبته بإيماءة من رأسي، نادى على أحد العمال طالبا منه كوبين من الشاي، عاود السؤال.

* هل أنت من قريتنا؟, أم أنت قريب للحاج؟ كيف تعرفت عليه؟

* بالحقيقة لم أعرف الحاج إلا من أقل من يوم.

ضرب كف بكف، وعلت شفتيه ابتسامة.

* هكذا هو الحاج من صغره يسير وراء قلبه، القلب عنده هو مؤشر اختياراته، وكم من مرة طلبت منه أن يكون الاختيار بالعقل قبل القلب، ولكن لا حياة لمن تنادى، ولكن للأمانة دوما هو الرابح، لم تخطيء اختياراته إلا بالنذر اليسير، وأتمنى أن تكون أنت اختيارا سليما، أعرف يا ابنى أن الله يضع أمام كل منا منذ لحظة الميلاد آلاف الطرق لتختار من بينها، وكل طريق له مغرياته، والذى يمنحه الله البصيرة يكون اختياره سبيلا لفهمه الحياة ودروبها جيدا، نتمنى أن نكون ممن منحهم الله البصيرة، ضع الله نصب أعينك يتولاك بكل أمورك.

أردت أن أهديء من روع تساؤلاته وقلبه.

* على فكرة يا حاج (بهيج) لست هاربا من ثأر أو من فعله شنعاء، أنا هارب من الذكريات، ولا تندهش نعم هارب من الذكريات التي كانت جميلة ولكن فجأة ألبسها الحزن رداءة، وأعرف جيداً أنى بحاجة لوقت طويل لأستعيد جمالها.

حينها وجدت يده تربت على يدى بحنان الأبوة، أخذ يفتح الدفاتر واحداً تلو الآخر، هذا وارد الشركات الحكومية، وهذا وارد الشركات الخاصة مقسم بين عدد من الشركات، وهذا صادر للأفراد وهذا للشركات الخاصة، وهذا سجل بأرصدة المخازن كل صنف له ما يخصه من صفحات، للحقيقة الرجل استفاض بالشرح، أخبرني أن على استلام البضاعة و التحقق منها ومن صنوفها حسبما يكون بالفواتير المرفقة، وكذلك الصادر،

Edit with WPS Office

وجدت نفسى خلال أيام ملما لحد كبير بغالبية الأعمال، أركب السيارة مع الحاج بالصباح، ينزل هو إلى المحل الكبير وتذهب بي السيارة إلى المخازن، وتعود لأخذى بعد الثامنة مساءا، استمر عملي هذا على مدار شهور، حزت فيها على ثقة عم (بهيج) وصرت ساعده الأيمن، الحاج كان كل فترة يذهب إلى قريته، صحبته أكثر من مرة، ننزل يوم الجمعة الأخيرة من الشهر، من بداية انبلاج الفجر، نصلى الفجر، يركب السيارة الخاصة به ومعه زوجته وابناه الشابان الذى لا يتجاوز عمر أكبرهم السادسة عشرة، يصاحبني أنا وعمى (بهيج) بسيارة أخرى، أحيانا يكون معنا أحد العمال، وسيارة أخرى تحمل بعضا من العاملين لديه، كانوا يتناوبون الذهاب حسب جدول محدد، نصل إلى (كفر ربيع) بعد مسيرة تقارب الساعة أو أكثر قليلا، قبل الدخول الى القرية، لابد من المرور على المقابر، يقف أمام مقبرتي أبيه وأمه يقرأ القرآن بصوت مسموع، بعدها يدعو لهم ونحن نردد وراءه، نعود إلى السيارات، يسير متثاقل الأقدام وكأنه يأبى المغادرة، نلمح بريق دموع بعينيه، نذهب بعدها إلى مقدمة حارة شديدة الضيق، ننزل مترجلين، يسير وعلى جانبيه ابناه، ونحن خلفه لمسافة أمتار قليلة، يتوقف أمام باب الحجرة من الواضح أنها ليست كبيرة المساحة، ولنكن منصفين ربما بلا مساحة، يتوقف أمامها يمرر يده على الباب لمرات، اللافتة التي ذهب طلاؤها تحمل اسمه، فهمت أنه المحل الأول الذى بدأ منه، التحايا تلقى عليه ممن يمرون بنا، بل إن البعض يهرول مندفعا محتضنا له ويقبله من كتفيه، نعود إلى السيارات التي تعاود سيرها لحوالي الربع ساعة، حتى نتوقف أمام مبنى كبير من عدد من الطوابق، تنفتح البوابة الكبيرة، ندخل حتى بداية درج السلم المؤدى للبناية، نجد على أحد الجوانب أخيه (عوض) وزوجته وأولاده، وعلى الجانب الآخر أخته (انشراح) وزوجها اللواء طبيب (حسين المعصراوي) والذى يتخصص في جراحات العظام، سليل الأسرة العريقة والتي قيل عنها الكثير، قالوا إن الأب كان هو الطبيب الخاص للملك، وأنها تملك أكثر من ربع زمام القرية من أراض، تزوجها رغم الرفض القاطع والشديد من كل إخوته وجميعهم أطباء عسكريون،

Edit with WPS Office

حتى شقيقته الوحيدة (نجوان هانم) كانت أكثر رفضا من الجميع بداعي أن البون شاسع بين الأسرتين، لم يلق بالا لرفضهم وأصر على زواجها، ما إن انتهت من الثانوية العامة، وكانت زوجته، وبخلال فترة قليلة أثبتت للجميع أن رفضهم لم يكن بمحله على الإطلاق، الكل يقف وكأننا بتشريفة استقبال، الكل يلقى بنفسه إلى أحضانه، أخته تصاحب الزوجة وتدخل بها قبل انتهاء مراسم الاستقبال، ندخل بعدها إلى البهو الرخامي الكبير التي تتوسطه مائدة طعام كبير، طعام الإفطار معد، نجلس جميعا لتناوله، بعدها نعود إلى المدخل، تأتى أكواب الشراب و الشاي، تستمر الجلسة وقتا طويلا، أناس تأتى للترحيب، وآخرون يذهبون بعد انتهاء مهمة الترحيب، يرتفع أذان صلاة الجمعة، نتبعه جميعا مترجلين، المسجد الأكبر بالقرية والتي يتوسطها تماما، يفسح له مكاناً بأول الصفوف، الخشوع التام يسود المسجد، تنتهى الصلاة وينهض، الكل يسرع إليه مجيبا له، نخرج وفى أعقابنا عدد لا يحصى، عند باب المنزل نجد عددا من الماشية يمسك بها صبية صغار، يأتي من بعيد جزار وبعض صبيانه، يشير إليه ببدء الذبح، بعد الذبح يبدأ تجهيز لفافات اللحم، وتحميلها على سيارة نصف نقل كبيرة، وتذهب مع بعض عماله لتوزيعها على أهل القرية بلااستثناء، الحاج يجالس رجالات القرية ومن بينهم حسبما أخبرني عمى (بهيج) المجاور لى والذى كان يكتف ببسمة خفيفة حينما يرى زيادة مساحة الدهشة، يجلس بجوار الحاج مباشرة العمدة الحالي (صبري عبد الغفار) ابن العائلة التي لها باع كبير بعالم السياسة والبرلمانات وتولى الحقائب الوزارية، وأيضا (عادل ابو حسين) عائلة لها نفس المكانة وبينهم قرابة ومصاهرات وتنتقل العمودية بين العائلتين بهدوء، لم تجر أي انتخابات بشأن من يكون العمدة؟، الحديث يتشعب بهم بجوانب عدة ولكن مركزها هو القرية ومتطلباتها، عند إعلان الشمس رغبتها بارتداء عباءة الليل، ينهض مصافحا الجميع، تأبط عمى(بهيج) ذراعي وهو يقول لي.

* لعلك عرفت مما رأيت اليوم أن المحبة هي الثروة وليس المال أو السلطة، دعوات الناس الصادقة هي سبب بركة رزق الحاج، المحبة لا

Edit with WPS Office

تباع ولا تشترى، ولكنها مواقف وأسلوب حياة، سر أنت أيضاً على هذا النهج، لا تجعل المال أو السلطة همك الأول، محبة الناس هي الأهم وهى الداعم للحياة.

سارت الحياة سيرها المكتوب لها، وكان انغماسي بالعمل وشغفي أن أكون جديرا بالثقة سببا كبيراً بعودة الروح إلي إلى حد كبير رغم أن الحزن يسكنني، وفى صباح يوم أرسل الحاج يستدعيني، ذهبت إليه و الكثير من التساؤلات تجتاحني، جلست أمامه منتظرا ما يريد قوله، بعد حديث قصير عن العمل بالمخازن ومجرياته قال.

* (محمد) سوف تعمل من اليوم على توزيع البضاعة على خط الصعيد، تذهب مع السيارة وتمر على التجار الذين نتعامل معهم وتوزع عليهم البضاعة وتحضر ما يقومون بدفعه من أثمانها، وهذه أيضا فرصة للمرور على قريتك، مرت شهور وأنت بعيد لا تعرف ولا يعرفون عنك شيئا، لا بد من طمأنتهم.

أجبته بهزة الرأس، نادى على سائق الشاحنة الكبيرة.

* (زكى) من الغد (محمد) معك بالتوزيع على خط الصعيد، عليك أن تعرفه بكل شيء، ربنا معكم.

جبنا الكثير من الرحلات التسويقية على خط الصعيد، وفى يوم وجدت بي حنينا لقريتي (الجفادون)**,** فطلبت من (زكي) السائق أن ننهي جولة اليوم ويذهب بي إليها حتى أذهب لساعات لزيارة الأهل، لم يمانع، بهذا اليوم كانت الأمور ميسرة، انتهينا بعد الظهيرة وأسرع بي إلى قريتي، تغير كبير حدث، بنايات عديدة وعلى طرازات معمارية مختلفة نبتت على جانبي الطريق، حتى طريق المقابر يكاد أن يلتصق ببنايات القرية، أوقفنا الشاحنة بمقدمة الشارع القائم به بيتنا، أصر (زكي) أن يتركني للذهاب وحدي، هذه لحظة تحتاج خصوصية عائلية، هكذا قال وأضاف آتى إليك بعد ساعتين، وافقته وأخذت الطريق إلى البيت، كلما اقتربت تتصاعد دقات قلبي والعرق تزداد إفرازاته، البيت كما تركته، ولكن الباب

Edit with WPS Office

مغلق وهذا لم يحدث بأي وقت من أوقات النهار وحتى لساعات الليل التي تسبق النوم، وقفت متسمرا يعتريني القلق، دفعت الباب وكان غير جيد الإغلاق تماما، دخلت كل شيء على حاله، كأنه تركه من أيام أو ساعات أو لحظات، دخلت بخطوات بطيئة

أنادي أبي وأمي وإخوتي، لا إجابة تأتي إلي، مجرد صدى صوت يرد إلي، أخذت الطريق إلى حجرة أبي وأمي، طرقت الباب مرات، لا رد فزادت مساحات قلقي، دفعت الباب ودخلت، أمعنت النظر بمن يرقد على الفراش، إنها أمي ولكن ماذا حدث لها، أصبحت ضامرة الجسد، مجرد هيكل تحت الغطاء، هززتها مرات، بعد وقت طويل فتحت عينيها، انتبهت إلي، قفزت جالسة وأمسكت رأسي بين يديها، تمرر كفيها عليه، تتحقق من وجودي، صاحت بصوت عال.

* (محمد) أين كنت، أبوك وإخوتك لم يملوا من البحث عنك، أبوك ظل حتى آخر يوم بعمره ينتظرك، مات أبوك من أكثر من شهرين، لماذا تركتنا يا ولدي كلنا راحلون؟.

واحتضنتني بعنفوان لم أعهده بها، وتركت العنان لدموعها وتعانقت معها دموعى،

وجدت نفسى أندفع إلى حضنها وأقبل يديها وقدميها، طالبا منها أن تسامحني.

* يا ولدي لا أب ولا أم لا يتمنون أن يكون أولادهم أفضل منهم، وأبوك حتى آخر أيامه كان يدعو لك ويتمنى عودتك إلى حضنه، ولكن إرادة الله فوق أي إرادة.

فجأة تذكرت (زكي) نهضت سريعا وأتيت به إلى البيت، وأحضرت له طاجن لبن بالقشدة، نعلم جيدا شغف الكل بهذا الطاجن، وبعدما انتهى منه وشرب الشاي، طلبت منه أن يعود ويتركني للمبيت هذه الليلة مع أهلي وسوف أعود باكرا، وافقني على مضض كان راغباً بوجوده معي، غادر وأخذت طريقي نحو المقابر، وقفت أمام قبر الأب أولا، بكيت كثيرا

Edit with WPS Office

وطلبت منه أن يسامحني، وطلبت له الرحمة، وذهبت إلى قبر (بثينة) حدثتها طويلا عن أيامنا الماضية، دعوت لها بالرحمة، عند مغيب الشمس أخذت طريق العودة، وجدت إخوتي ينتظرونني، أحاطوا بي من كل جانب بين أحضانهم وقبلاتهم، جلست معهم وحكيت لهم رحلتي خلال الشهور الماضية، وأنني وجدت نفسي بهذا العمل وسوف أستمر به، وحكوا لى عن بحثهم عني وعن معاناة أبي واعتزاله الحياة بأواخر أيامه حزنا علي، سهرنا حتى ساعة متأخرة من الليل، تركت مبلغا من المال يكون تحت تصرف أمي، وتركت رقم تليفون المحل والمخزن، وعند الفجر صليت معهم بمسجد القرية، وغادرتهم عائدا على وعد بالعودة على فترات متقاربة، دار بي دولاب العمل وأخذني أخذا كبيرا، تعلمت الكثير من عمي (بهيج) من العمل ومن الحكمة، والحاج صار يعتمد علي بالكثير من الأمور، طرأت على رأسي على مدار أيام وهى أن أكون بائعا متجولا وأبدأ المشوار كما بدأه الحاج، ولكن المشكلة كانت تكمن بكيفية عرض الأمر عليه، ترددت كثيراً ولكن في صباح ذات يوم طلبت منه أن أحدثه بعض الوقت، أشار إلي بالجلوس، الحيرة أمسكت بتلابيب لساني، كلما أردت أن أنطق تتوقف الكلمات ولا تغادر شفتاي، وهو مكتف بالنظر إلي، بعد وقت طويل تكلمت بطريقة أقرب إلى التلعثم.

* عم الحاج هناك أمر أود أن توافق عليه، أنتم أسبغتم علي الكثير من كرمكم وأفضالكم، وأود أن أسير على ذات طريقك من البدايات، أريد أن أكون تاجراً جوالا بالبلاد، امنحني موافقتك وبركتك.

وجدته يضحك بشدة وترتفع ضحكاته ويضرب كفيه، ثم مد يده وأمسك بيدي.

* كنت أنتظر هذه اللحظة، ولمحتها كثيرا بعينيك، منذ أن رأيتك للمرة ا لأولى رأيت بك شخصي، وكنت أنتظر هذه اللحظة، لك ما تريد شريطة أن تكون كل بضائعك من عندي، وأن تظل قريبا مني، فأنت قريب إلى نفسي.

وجدت نفسي أتناول يده وأقبلها مرات، وهو يزداد ضحكا، سألني.

Edit with WPS Office

* هل حددت أماكن تجوالك؟

* لا والله أترك كل شيء للمشيئة.

* أقترح عليك أن تبدأ بالجوار محافظة القليوبية وتوابعها، فقط ضع أمام عينيك أن تكون بشوشا مرنا، لا تظهر التذمر حتى لو طال الجدال معك، تعامل مع الكل على قدر عقولهم، اهتم بمظهرك، المظهر والقول الحسن يفتحان أبواب الرزق والبركة، ليكن الله معك.

* على خيرة الله.

جهزت بضائعي وأخذت طريقي إلى مركز طوخ ولا أدري السبب بهذا الا ختيار ولكنه توجه من الله، أخذت البضاعة التي أراها تناسب أهل الريف وتوكلت على الله، نزلت إلى مدينة طوخ، وتركت لله قيادة قدماي، أخذت مواصلات لأقرب قرية، جبت قرى كثيرة باليوم الأول، جبت (كفر الحصة ، السفاينة، العبادلة، وبلدان أخرى)، ولكن ما شدني أكثر هي (كفر منصور)، لا أعرف السبب سوى أني وجدت بها تشابها كبيرا بينها وبين قريتي, أحسست كأني بين ناسي، كثر نزولي بها، وكثر رزقي منها، كنت أجلس مع الرجال على المصاطب أو بين الحقول، نتبادل الحكايا والنكات والقفشات، أتناول معهم أكواب الشاي أو لقيمات من طعامهم، كان الكل يقابلني بالترحاب، لفت نظري على مدار أيام عديدة هذه السيدة التي تجلس أمام بيتها بعد عصر كل يوم، والنسوة يقبلن عليها هاشات باشات، البعض منهن يقبلن يدها أو رأسها، تنصت جيداً لهن، تنهض أحيانا تصطحب إحداهن معها للداخل، يخرجن بعد قليل والسيدة الأخرى لا تتوقف عن الدعاء لها، سيدة لم تتجاوز منتصف العشرينات من العمر، وجه ضحوك دائما، وجه مستدير شاهق البياض مزدان ببعض الخمار، جسد متوسط، تابعتها كثيرا، والتساؤل ينهشني ما حكايتها؟, لم أجرؤ على السؤال عنها، إلى أن كان يوماً، وجدت من يناديني، صوت نسائي، تلفت أبحث عن مصدره، وجدتها تشير إلى أن أذهب إليها، للأمانة سرت متثاقلا بعض الشيء، وقفت قبالتها متسائلا.

Edit with WPS Office

* أوامرك يا ست.

أشارت إلى بالجلوس، صبت لي كوبا من العصير، ناولته لي، تجرعته دفعة واحدة، ربما لأخمد تساؤلاتي، تبادلنا النظرات لوقت، ثم سألتني.

* أشعر بأن لك حكاية تخفيها بشاشتك ووجهك البسام، وجهك يخفى الكثير، ومنذ ذلك اليوم الذى أوقفت به شلالات دم كانت من الممكن أن تملأ قريتنا والقرية المجاورة لنا، لن أنسى هذا اليوم، عندما جاء أحد رجال القرية يهرول وهو يصرخ وعلى بعد منه يهرول بعض الرجال و الشباب، كان يصرخ:

* يا أهل (كفر منصور)، عمى (نجاتي الميكانيكي) مات مسموما قتلوه و لاد البلد التي بجوارنا ويعمل بها، خرج الرجال، من يحمل فأسا، ومن يحمل عصا، ومن يحمل سكينا، ومن يحمل بارودة، الأمر ينذر بما لا يمكن أن يحمد عقباه ، كنت أنت آتيا من بعيد، لمحتك لأن الله أراد لي هذا، وجدتك تلقي ما تحمله، وتسرع فاتحا ذراعيك على سعتها، حاول البعض دفعك جانبا ليستمروا لم تتزحزح عن مكانك ولا قيد أنملة واقفا أمام الحشد الذي كان يهرول باتجاه القرية الأخرى، صرخت فيهم.

* أرجوكم اسمعوني، ألم يقل رب العالمين (يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة) أليس من الممكن أن يكون موته قضاءا وقدرا و هذا ما يقرر هذا الطبيب الشرعى، فلنسمع صوت العقل والحكمة، حتى نتبين الأمر وبعدها يكون لكل حادث حديث.

والعجب سكت الجميع وصمتوا وكأن على رؤوسهم الطير وأصابهم الخرس وتبادلوا النظرات، وارتضوا بما قلت، شكلوا عددا من الرجال ذهبوا إلى الوحدة الصحية طالبين النظر بسبب الوفاة، أخبروهم أن عليهم إبلاغ الشرطة لتقوم بإجراءاتها وهذا ما حدث، وتم الإثبات أن الوفاة بسبب هبوط حاد بالدورة الدموية، وكنت أنت السبب في حقن الدماء، وزادت مكانتك بين الجميع، ويومها تأكدت أن لك حكاية وأنك ابن أصول وشهم ولا تخش في الحق لومة لائم، ثم لماذا نذهب بعيدا

Edit with WPS Office

من أيام كان يزورني العمدة (بدر السمكي)، وحكى لي حكاية أغرب من الخيال، أنك صديق مقرب للشيخ (بدير حمدان) شيخ الجامع الكبير، والذى عرفت أنك كنت صديقا مقربا له، حكى لي حكاية لم تنتشر بمدار القرية، لا يعرفها إلا البعض، أنا لم أعرفها إلا منه عندما أتت سيرتك وذكر بعض أفعالك الطيبة، أن أحدهم إدعى كذبا على أحد أبناء الشيخ وأظنه حدده بمن يحمل اسم (بهاء) أنه اغتصب إحدى الفتيات، وأتى مهرولا إلى العمدة يشكوه، فهو كما قال الرجل الشاكى يمت للبنت بصلة قرابة بعيدة، العمدة لم يصدقه، ولكنه لم يعلن هذا سمع الحكاية، وطلب منه عدم الحديث مع أحد بهذا مطلقا ومنحه مهلة ليتحقق من الأمر ويجد حلا، العمدة كان قد لاحظ غياب الشيخ عن المسجد لأيام بداعي أنه مريض، ولكن ما لفت النظر أنه لم يفتح بابه على الإطلاق لأيام ولم ير أحدا من أهل القرية له أو أولاده الثلاثة، هذا كان مثيرا للدهشة العمدة الذى أخذ طريقه إلى بيت الشيخ ليلا بل تستطيع القول إنه تسلل يلتفت يمنة ويسرة لا يريد لأحد أن يراه، طرق الباب، فتح أحد الأبناء بعد وقت ليس بالقليل، أفسح الإبن الطريق له ، قاده إلى حيث كان يجلس الشيخ، العمدة فوجيء بوجودك ولم يصب بالدهشة، كان يعرف قوة العلاقة بينكما، وأنك أحيانا عندما يحل الليل عليك تنام مع الشيخ كنت أنت تتحدث بهدوء إلى الشيخ طالبا منه أن لا يحمل الأمر أكثر مما يحتمل، فهم العمدة اتجاه الحديث وهذا سهل له ما جاء له، لم يتكلم، سمع منك اقتراحا أدخل السرور على قلب العمدة، لعلك تتذكر ما قلت ليلتها، قلت إن البنت تتهم (بهاء)، وأنا من داخلي أشعر أنها تدعى عليه ولا تعرف (بهاء) وأرى أن نعمل مواجهة بين البنت ولكن ليس مع (بهاء) وحده، بل سيحضر هذه الجلسة أخواه (نادى، حكيم), تكون الجلسة ببيتك يا عمدة ونطلب منها أن تتعرف على (بهاء) وهنا ستتضح الحقيقة حينها، وبعدها نرى ماذا بعد، الجميع أجمع على حصافة وحكمة الاقتراح، بل إن العمدة نهض من مكانه واندفع إليك محتضنا ومقبلا، تحددت ليلة هذه المواجهة، أتوا بالشيخ وأولاده، وتم إدخالهم إحدى حجرات الدوار وهو ما حدث مع الفتاة ومن يدعي أنه قريبها، بعد جلسة

Edit with WPS Office

استمع فيها العمدة للبنت عن الواقعة، طلب منهما النهوض معه، أخذهم إلى حيث الشيخ وأولاده وأنت جالسا بأحد الأركان، أجلس الفتاة لم يطلب شيئا لوقت، البنت تتجول بعينيها بين الجميع الحيرة تنتاب نظراتها، فاجأها العمدة أن تنهض من مكانها وتذهب إلى (بهاء)، نهضت بأقدام متثاقلة، وقفت أمام الشباب الثلاثة، التي تتصاعد أنفاسهم انتظارا للحقيقة لتثبت الفعل أو تنفيه، هم على ثقة ويقين من أخلاقهم، البنت بعد وقت طال، تنظر لهم وتنظر للمصاحب لها، ثم اقتربت من أحدهم ومدت يدها وأمسكت بمعصمه هاتفة.

* هو هذا، كررتها كثيرا.

وأسرعت بالجلوس أرضا ترتعش، أصابت كل الوجوه السرور فلقد أشارت إلى (حكيم).

نهض العمدة منفعلا ممسكا بخناق الرجل، صارخا به.

* قل لنا الحقيقة، لن تخرج من هنا إلا بعد الحقيقة.

حاول التملص نافيا أنه من قال وأخذ يرمي الأمر على البنت أنها من أخبرته بهذا، العمدة عندما وجد ألا طائل نادى خفرائه، طالبا منهم التحفظ على الرجل بحجرة (السلاحليك) بدون فتح أي حديث معه، بعد خروج الرجل طلب الرجل من البنت أن تتكلم بالحقيقة واعدا بالوقوف بجانبها للأخذ بحقها مهما كان الفاعل، قالت إن هذا الرجل لا يمت لها بأي قرابة، وأنه أتى بها من مدينة بنها التي كانت تبيع بأحد شوارعها الخضار، واعدا لها أنه سيتزوجها، وغرر بها وعاشرها مرات عديدة ببيته هنا، ثم تفتق ذهنه أن يلقى الجريمة على أحد شباب القرية وكان ابن الشيخ من   اختار بحجة أن الشيخ رجل ضعيف الحيلة ولن يجد بدا إلا تحمل الجريمة، وأقنعها الرجل بهذا، وهى وافقت لأنها كانت قد شعرت بتنصله من فعلته، العمدة طلب إحضار الرجل، وأرسل إلى طلب المأذون، خلال فترة انتظار المأذون كان هدد الرجل إما تحمل فعلته، وإما إبلاغ الشرطة ويتحمل حكم القانون الذي ربما يصل لإعدامه، قبل الرجل، أتى

Edit with WPS Office

المأذون وعقد عليهما، بعدها طلب العمدة الخفراء بطردهم خارج القرية، وما تم كان من رؤيتك وحكمتك. وغيرها من أمور شاهدتها بعيني، ثم تعاملك مع الناس، بساطتك، بشاشتك لم ألمحك مرة عابسا، حتى الصغار أراهم يهرولون إليك ويمسكون بساقيك وجلبابك، وأنت تضحك بعلو الصوت وتمد يدك تخرج الحلوى وقطع النقود توزعها عليهم مع تعالى ضحكاتك، كما لو أنك طفل مثلهم، أكيد لديك الكثير،افتح قلبك واحك .

* ما الذي يفيدك من حكايتي، بها الكثير من الوجع والقليل من الفرح، وهل أنت بحاجة لزيادة أوجاعك التي أراها مثلما رأيتني؟

* ما عرفته من الحياة أن الوجع موجود داخل كل إنسان، سواء وجعا كبيراً أو صغيرا، والوجع أخي دوما ينادي مثيله.

ولا أعرف ما الذى فك عقدة لساني وجعلني أحكى لها حكايتي من الألف للياء، كانت تسمع ولا تعقب حتى انتهيت، تفرست بي كثيراً، وطال صمتها، تكلمت بالنهاية.

* لك حق أخي لكل منا وجعه الذي يحاول مداراته بأي شكل، الآن فقط عرفت سر بشاشتك وأسلوبك الجيد بالتعامل مع الجميع، أنا مثلك تزوجت ما إن وصلت عمر الثامنة عشر، من رجل كان يعمل مهندساً زراعيا، ويملك خمسة أفدنة، تزوجنا دون أن نعرف بعضنا، كان رجل تجمعت به كل الصفات الحلوة، مشاعر حانية واهتمام وعشرة بكل الا حترام، لم يعلو صوته علي أو تطاول علي بأي شكل، عشت معه ثلاث سنوات، مرت كأنها ثلاثة أيام أو ساعات، وكأنه كان ابن موت، صدمته سيارة وهو بطريقه لمديرية الزراعة بالمركز، بكيته كثيراً، إخوته حاولوا أن يتقربوا لي وأن أتزوج منهم، رفضت، المرحوم وكأنه كان يشعر بأن عمره قصير فوجئنا بأنه كتب كل ما يملك لي، وحفظ هذه الأوراق التي تثبت هذا مع أحد مشايخ البلد كان يثق به، جن جنون إخوته عندما علموا بهذا، وزاد ضغطهم علي للزواج من أحدهم بهدف أن يضعوا أيديهم على ما ترك أ خوهم، رفضت ومازلت أرفض، الوجوه والأردية

Edit with WPS Office

تخفي الكثير من أوجاعنا، هل صدقت أن الوجع يشعر بالوجع ويناديه ، لم أخبرك باسمى، أنا (تحية أبو السعود بكر), ترملت وأنا كنت بالحادية والعشرين من العمر، كان هذا من ثلاث سنوات، ما يصبرني هو محبة الناس لى، أرضي أشرف على زراعتها، والحمد لله ربنا مبارك لي بها، وأنا حريصة على حق اللّه فيما تنتجه. لكل منا وجعه الخاص، تكررت مرات الجلوس معها، بدأت العيون تنظر إلينا كثيرا وهذا أمر أزعجني كثيرا، بداخلي نداءات لها، جذبتني بمكانتها ومحبة الناس لها، وفى يوم قررت أن أصلى صلاة استخارة مرات ومرات، في كل مرة كنت أجد ترحيبا من اللّه مما أنتويه، بعد شهور منذ جلستنا الأولى، ذهبت إليها ألقيت التحية عليها، وبلا مقدمات تكلمت.

* ست (تحية) لدي عرض لك وأتمنى قرارك بصراحة.

* أي عرض؟

* أجد نفسى مشدودا لك وأفكر بك كثيرا، وقد استخرت اللّه كثيرا، وقد وجدت ارتياحاً وترحيبا من ربي، بوضوح أود أن أتزوجك.

علت أمارات الدهشة ملامحها وتضرجت وجنتاها، وفتحت عينيها على سعتهما دهشة.

* هل تتكلم جد؟

* بكل الجد.

* بصراحة لا أعرف كيف أرد، فقط امنحني أياما للتفكير, وإن أراد اللّه ف لا راد لأمره.

* يلزمك كم من الوقت؟

* يومان أو ثلاثة.

* على خير بإذن اللّه.

ونهضت آخذا طريقي للانصراف، لم أنزل القرية لثلاثة أيام، رأيت أن

Edit with WPS Office

وجودي ربما يكون ضغطا عليها وعلى قرارها، وفي اليوم الرابع، وبساعات اليوم الباكرة أخذت الطريق هذه المرة بلا بضائع، وجدتها تجلس نفس الجلسة فقط هي أيضا مبكرة عن موعدها المعتاد بعض الساعات، وقفت قبالتها صامتاً مجرد عينان ترسل لها نظرات متسائلة، النسوة اللاتي كن يجلسن معها غادروا وكأنهم فهموا أن هناك أمرا خاصاً، لم أتفوه بلفظ، هي أيضا لم تتكلم مجرد إشارة من يدها إلي بالجلوس، جلست ونظراتي تتوسل إليها بالحديث، بعد دقائق مرت كأنها ساعات نطقت.

* (محمد) أخي ينتظرك.

* أخيك لم تحدثيني عنه من قبل.

* لم تكن هناك فرصة الحديث عنه، هو أخي الوحيد، يكبرني بثلاثة سنوات، موظف ربنا يعينه على كوم اللحم، لديه خمسة أولاد، أنا لا أبخل عليه بشيء، كلمته عنك وهو ينتظرك، عليك أنت أن تختار الوقت وأنا أخبره.

* أذهب له بالغد بأمر الله بعد العشاء، فقط سؤالي ما جوابك أنت؟

* سوف تعرف من أخي كل شيء، لا تتعجل.

أومأت لها بالرأس وطلبت أن تأذن لي بالمغادرة، غادرت وأنا أكاد أصرخ لكل المارة، أني سوف أتزوج (تحية بكر), أخذت الطريق إلى القاهرة ومن فوري إلى الحاج (محفوظ العربي) الذى لم أنقطع عنه مطلقا، هو عندي أب روحي، استشعر أن هناك أمرا ما يشغل بالي، كان يجالسه البعض، طلب منهم أن يتركوه لبعض الوقت، جلست إليه حكيت له عن (تحية) استمع بكل حواسه إلي ثم قال.

* على بركة الله، ربنا يجعلها زيجة خير لكما.

شكرته وأخبرته أنه سيكون معي غدا لزيارة أخيها، وافق على الفور، غادرته إلى سكنى الذي اخترته بعد أن تركت العمل لديه، ألقيت بنفسي

Edit with WPS Office

على الفراش وذهبت بالنوم العميق، صحوت غاية بالنشاط، عند العاشرة صباحاً أخذت طريقي إلى الحاج (محفوظ) الذي ما إن ،رأني حتى علت ضحكاته.

* أنت متعجل، هناك أمر فاتك، أنه لابد من حضور الوالدة حتى تفرح بك وتخرج من حالة الحزن التي تعيشها منذ وفاة أبيك، سوف أجعل سائق يذهب بك إلى قريتك، ويعود بك والوالدة بأمر الله قبل العصر، بعدها نتحرك إلى (كفر منصور) هيا لا تضيع الوقت.

نادى على أحد السائقين طالبا منه أن يذهب معي إلى قريتي، شكرته لأ نه تذكر أمرا تاه عن خاطري، دخلت بيتنا ناديت على أمي، سمعت صوتها الواهن يرد علي، عرفت أنها بحجرتها، دخلت عليها، فتحت ذراعيها على سعتهما، ألقيت نفسى داخل حضنها، وجدت دموعاً تنهمر من عينيها، بللت صدري، ضغطت علي بقوة وكأنها تعتصرني، أخذت تقبلني، خرجت الكلمات من شفتيها متقطعة.

* تعرف اليوم توقعت حضورك، لأنى رأيتك بالحلم تدخل علي هاشا باشا ، ومن تلمسي لوجهك الآن، مؤكدا هناك خبر سار ربما يزيح بعض الوجع الذي عشناه الفترات الأخيرة.

أطلقتني من حضنها، جلست مجاورا لها على فراشها، أخذت يديها أقبلها مرات متتالية.

* بالفعل يا أمي أحمل لك خبرا ربما يسعدك.

وضعت يدها على فمي، وصاحت بصوت عفي.

* دعني أخمن ما هو؟, أنت قررت الزواج، والله والله والله هذا ما تخيلته على مدار الأيام الماضية.

أخذتها بحضني أقبل كل ماأصل إليه من جسدها.

* سبحان الله، صدقت يا أمي، أنت قريبة من الله لذا قلبك صادق، هيا

Edit with WPS Office

انهضي لترتدي ثيابك وتأتي معي للذهاب إلى العروس، أنتظرك وسوف أذهب أخبر إخوتي أنك معي ليومين أو ثلاثة وحتى أجعلهم يفرحون.

خرجت إلى السيارة، طلبت من السائق أن يسرع بي إلى طريق الحقل الذى حددت له مساره، عشر دقائق كنا نتوقف أمام الحقل، إخوتي منهمكين بالعمل، لم يلفت نظرهم السيارة التي توقفت، نزلت صحت بهم، أسرعوا إلي كل منهم يحتضني، أخبرتهم أنى ذاهب أنا والأم لخطبة من أريدها، هللوا فرحا، غادرتهم وصيحات الفرح تصاحبني، حتى زغاريد نسائهن ، عدت مسرعا إلى البيت، وجدت أمي على أهبة الاستعداد، نظرت إليها مندهشا، ليست هي أمي التي غادرتها من لحظات، عادت كأنها لم تعرف الكهولة، تناولت يدها، وأجلستها بالمقعد الخلفي، طوال الطريق أجدها تربت على ظهرى، التفت إليها لأجد وجهها مشرقا كأن الشمس متعامدة عليه، ولكنها بين اللحظة واللحظة كانت تتمتم همسا كأنها تكلم نفسها.

* آه وآه يا (عيسوي), كم تمنيت أن تعيش اللحظة، مؤكدا روحك معنا. ومؤكد أنت سعيد الآن لفرح ابنك.

بعد حوالي الساعة أو يزيد وصلنا إلى المحل الكبير، وجدت الحاج قد ارتدى بذلة غاية بالأناقة، وهى من المرات النادرة التي رأيته يرتدى البذلة، استقبل أمي بترحاب شديد، صرف السائق. وهو يطلب منه أن يأتي بالسيارة الخاصة به، أصر على أن يقود السيارة بنفسه، طوال الطريق يرحب بالأم ويبارك لي، كاسيت الراديو يذيع أغاني أفراح، توقفت السيارة بمدخل (كفر منصور)، للسؤال عن منزل(محمد بكر) شقيقها، قادنا أحد الرجال إلى بيته، نزلت أنا أولا أطرق الباب، فتح لي الباب صاحب البيت الذي أسرع بالترحيب بنا، نزل الحاج والأم، دخلنا إلى حيث أشار إلينا، إلى حجرة الصالون، الترحاب بنا كان فوق المعتاد، لكزت الحاج (الحاج محفوظ) ليبادر بالكلام.

* يا حاج (محمد) جئنا نطلب يد الست (تحية) لتكون زوجة لابننا (محمد).

Edit with WPS Office

* يا عم الحاج مما عرفته من أختي عن (محمد) يجعلني أكون مطمئنا له لأني سمعت عنه الكثير من أهل القرية، وهذا أمر نادر هذه الأيام، ولكن لابد من معرفة رأي (تحية) فهذه حياتها وهي أدرى بمصلحتها, وسوف أدعوها لتقول رأيها، هي بالداخل سوف أناديها.

نهض واقترب من الباب ونادى عليها وعاد لمكان جلوسه ثانية، بعد دقائق دخلت وجلست مجاورة لأخيها الذي أخبرها بطلب الحاج، ردت بلا تردد.

* أوافق فقط لي شرط أو طلب، وهو أن يترك مهنة البائع المتجول، ويفتح محلا لبيع الأقمشة وأنا لدي بالبيت محل كبير.

قلت على الفور وبلا تفكير.

* أوافق مقابل طلب، هو أن أدفع الإيجار لها، تم التوافق على هذا، وطلب الحاج قراءة الفاتحة، وبعدها أشارت إليها الأم تدعوها للجلوس مجاورة لها، لبت دعوتها، احتضنتها الأم وقبلتها، وقالت بصوت مسموع جيدا.

* أرى بك زوجة تفهم الحياة، وأتمنى أن تكوني وجه خير لكما معا. ما سأقوله ليس به مبالغة، أراك للمرة الأولى ولكن القلوب تقول دوما أن هذا قريب من القلب وذاك لا يفتح له القلب، وأنا اقول إن قلبي ارتاح لك بصدق، وأقول لكما أنتما الاثنين أن تتجاهلا الأمس كأنه لم يكن، كأنكما تولدان من جديد، أن تحيا حياتكما بمحبة ربنا يكتب لكما السعادة.

ثم عاودت احتضانها من جديد وأمطرتها بسيل من القبلات.

تم الإتفاق على كل شيء بمنتهى الأريحية والتفاهم، تم الاتفاق على الزفاف بخلال شهر، اتفقا على أن يقيم ببيتها دون غضاضة، وأصر هو على تجهيز البيت بكل ما يلزمه من الأثاث الجديد، حاولت معه أن لا داعى لهذا، البيت به كل شيء، أصر وقال لنبدأ الحياة وكل ما حولنا جديد، أخذ موافقتها بعد جهد كبير على إقامة حفل زفاف يليق بها, كان

Edit with WPS Office

يتوسل للأيام أن تسرع، كل وقته كان لتجهيزات كل شيء، بعد مرور الشهر، أقيم سرادق أمام بيتها، وصدعت أغاني الأفراح، ورقص الجميع على عزف المزمار، الحاج (محفوظ) فاجأهم بتقديم سلسلة ذهبية هدية لها، دخلا إلى البيت بعد الليلة الصاخبة فرحا، قاما بالصلاة للشكر لله على اقترانهما والدعاء بأن يمن عليهما ببركته، كان لديهما ظن أنهما لن ينجبا، هي تزوجت لسنوات وهو تزوج لسنوات ولم ينعما بالذرية، بداخلهما يقين أنهما تزوجا للأنس والأمان، مضت الأيام سعيدة، افتتح المحل وزوده الحاج ببضاعة كبيرة، كان المحل فاتحة خير عليه، بخلال شهور قليلة ذاع صيته، والإقبال عليه يزداد كل يوم، الأيام تمضى هانئة ، لا تغيير بنمطها سوى كل أسبوعين يذهبان لقريته ليوم أو يومين، حتى كان يوم أحست بآلام حادة، أسرع بها إلى أقرب مستشفى، تم الكشف عليها وهو بالخارج لا يستقر على حال، حتى خرج الطبيب بوجهه المشرق المبتسم، اقترب منه ووضع يده على كتفه قائلا له

* مبارك، الست حامل.

أمسك بذراع الطبيب بقوة, طالبا أن يكرر ما قال، كرر الطبيب قوله مرات، احتضن الطبيب بقوة وأخذ يقبله بل كاد أن يراقصه, هرول إلى حجرة الكشف، مال عليها قبلها من جبينها مرات، هو وهى لفهما الصمت لم ينطقا بأي كلمة، اكتفيا بحديث العيون، وعدها حين استقرار الحمل سينحر ذبائح ويقيم ليلة إنشاد ديني، طالبها بالراحة التامة وأحضر لها سيدة من أبناء القرية لخدمتها، حينما أرسل رسالة إلى أمه وإخوته يبشرهم بالخبر، جاءت الأم بصحبة بعض الإخوة، الأم لا تفارق الزوجة أيام تواجدها، تصلى وتدعو بصوت مسموع والدعاء يخرج مصحوبا بدموعها الساخنة فرحا بأنها سترى لابنها أبناء، الأيام تمر، بعد تأكده من استقرار الحمل وأنها بصحة جيدة، نحر الذبائح وجاء بمنشدين ولاعبي التنورة، ليلة طال حكى القرية عنها، كانا يعدان الأيام والليالي لتكتحل أعينهم بحلم ظناه مستحيلا ولكنه سيتحقق بأمر الله، بالأسبوع الأخير من الحمل جاءت الأم رغم كهولتها وتعرضها لبعض أمراض الشيخوخة مصرة أن تستقبل المولود الأول لابنها، الوقت يمر ثقيلا وهو يزرع الصالة

Edit with WPS Office

ذهابا و مجيئا ويرتل سور القرآن بصوت عال، سمع صوت بكاء طفل، رقص داخله فرحا، انتظر فتح الغرفة ومناداته ليرى طفله وليؤذن بأذنيه، طال انتظاره والقلق ينهش أحشاءه، وصدره يعلو ويهبط بصوت مسموع أشبه باللهاث، فتح الباب عن أمه ووجهها ملئ فرحا ومضاء، صرخت به.

* مبرووووك يا ولدى ربنا رزقك ببنت وولد، بسم الله ما شاء الله.

لم يستوعب كلام أمه، اندفع داخلا، وجد (تحية) كأنها لم تكن بلحظة مخاض صعبة ، محياها ينطق فرحا، وإن كان ممتلئا بقطرات العرق، أشارت إلى قطعتي اللحم الصغيرتين، حملهما واحدا تلو الآخر قبلهما أخذ يؤذن بصوت خفيض داخل آذانهم، كان يود أن يحتضنهما ولكنه خاف عليهما من حنينه، وضعهما بهدوء، مال عليها قبل جبينها مرددا.

* حمدا لله على السلامة يا وجه السعد، ربت عليها بكل الحنان، مدت يدها وأمسكت بيده، همست له بوهن.

* سوف أسميهما أنا هذه المرة وإن أراد الله غيرها لك أن تسميهم.

* هذا حقك، سميهما كما تريدين، ليس لدي أي مانع.

* سوف أسمى البنت (بثينة) ولا تندهش، أنا تعلقت بك بسبب حبك لها، وسوف أسمى الولد (عيسوي) على اسم أبيك الذى لم أره ولكنى عرفته من حكاياتك عنه

مال ثانية على جبينها مقبلا لها، أخذ عهدا على نفسه أن يقيم عقيقة تليق بفرحته التي لولا الحياء لكان قد رقص، الأم أصرت على القيام بخدمة زوجة ابنها والتوأم حتى تستطيع أن تقف على قدميها وتعود إلى كامل صحتها، بل إنها أشعرت الجميع أنها ألقت من على كاهلها عشرات السنين، أغلبية وقته صار مخصصا للجلوس بالبيت يضع أحد الأ بناء على ساقه ويكلمه كأنه يفهم، ترك التجارة لأخ له كان قد أصر على وجوده معه عندما أيقن عدم ترحابه بعالم الزراعة، أتى به وابتنى له بيتا

Edit with WPS Office

قريبا من بيته، تفتحت أبواب الرزق بشكل غير متخيل، راجت تجارته وأصبحت مطلبا لأبناء القرية والقرى المجاورة، عند مضى أربعين يوما من الولادة، نحر الذبائح بلا عدد وأقام الموائد واستضاف الكثيرين من قريته ومن التجار وكان على رأسهم الحاج (محفوظ العربي)، الذى شاركه الفرحة كأنه ابن من أبنائه، أخذت الأيام بالتسارع، وكلما مر يوم تزداد تجارته، أيقن أن الوقت حان لفتح محلات أخرى بالقرى المجاورة أو حتى لمدينة (طوخ)، ذهب إلى الحاج وجالسه طالبا مشورته، لم يبخل عليه بالنصح، بدأ بمحلين بقريتين مجاورتين، من نصائح الحاج أن يأخذ الأمور تدريجياً حتى تتضح الأمور، الأولاد يكبرون أمام عينيه، تحول إلى طفل باللعب معهما رغم عدم إدراكهما، بعد مرور ثلاثة سنوات على الولادة حملت ثانية، لم يصدقا أنفسهما، كانا يظنان أنهما أرض بوار غير قابلة للإنجاب ولكن الله يرسل عليهما منحه الكثيرة، وهذه المرة توأم أيضا، تمت تسميتهما (سعيد) اشتقاقا من اسم والدها (أبو السعود), (محفوظ) على اسم الحاج الذى كان سببا سببه رب العالمين لما هو فيه الآن, الجدة كانت تأتى على فترات لترى أحفادها منه، ولكنه بالزيارة الأخيرة أصر على إقامتها إقامة دائمة معه، جادلت كثيرا وقالت له مرارا.

* لا أستطيع أن أبتعد عن مكان به أبوك.

وعدها أنه سيأخذها كل فترة إلى هناك، وبالإلحاح لانت، الأيام تسرع بما أراده الله لها، وتجارته تزداد رواجا، كان كل شهر يعد كشفا عن حسابات المحلات، وعندما يتحدد مقدار الأرباح، يسارع بتجنيب نسبة محددة، هى حق الله، يقوم بتوزيعه بنفسه على أهل القرية وأهل قريته، أو يساعد لإعمار مساجد أو مدارس، تزداد أواصر علاقاته بأهل القرية، حتى إنهم أصبحوا يقصدونه لأخذ مشورته بأمور كثيرة منها ما هو عام ومنها ماهو خاص، وكان لا يبخل بالنصيحة على أحد، جاء الحمل الثالث بعد أكثر من أربعة أعوام، وكان مرهقا لها على غير المرتين السابقتين، حتى عند الولادة تعذبت كثيرا، بل إن الموت اقترب منها أثناء الولادة، وكان

Edit with WPS Office

أيضا توأما، حمد الله على سلامتها، وأخذ قرارا أن لا حمل آخر، يكفى ما عانته بولادتها الأخيرة، التجارة تزداد نموا، وكان يقوم بشراء أراض زراعية كلما سنحت له الفرصة، بعد مضى العشر سنوات الأولى كان قد اقترب من أهل القرية، صار واحدا منهم بل إن الأمر أنه أصبح خبيرا بـ الكثير من شئونها، وكان يدعى للمجالس التي تنظر في شكايات أهلها، بل أصبح الملجأ والملاذ للكثيرين يأتون إليه يشكون من أمورهم الحياتية، يهون الأمر عليهم ويعطيهم النصيحة أو يساهم بالحل إن كانت شأنا ماليا، كان أحيانا يجلس لحاله ويشرد ويستعيد الأمس، يبتسم عندما يجد نفسه شبيها لوالده بالكثير من الطقوس، وكان الأب قبل رحيله ترك له عباءته ليرتديها هو بديلا عنه، بمرور الأعوام كان قد أتى بأولاد إخوته للعمل معه، وهذا لم يمنعه أيضا أن يذهب لقريته على فترات، وأيضا قام بشراء الأراضي الزراعية وكلف إخوته بزراعتها، وأقام مسجدا كبيرا بقريته باسم والده رحمه الله، الأيام تسرع به والرزق يزداد مع هرولتها، عندما يبلغ أحد من أبنائه سن الخامسة من العمر يأتي له بمحفظ القرآن الكريم، لم ينغص حياته إلا عندما عاد أحد أبناء القرية من غربة طالت لأكثر من ثلاثين عاما، لم يسمع به من قبل، منذ حضوره وكلما أراد شراء أرض زراعية معروضة للبيع يجده يزايد عليه ويرفع السعر، وكأنه أتى من غربته خصيصا ليزاحمه، سأل عنه، قال الكثيرون إنه ابن وحيد لوالديه الذين رحلا من سنوات بعيدة ولم يحضر جنازة أي منهما، وليس له أي أقارب بالقرية ولم يشاهدوا لهم أقارب، كان كثير المشاغبات والمشاحنات، كثيرا ما كان الأهالي يذهبون للشكوى لوالده الذى كان يعمل(قبانيا) يزن الغلال والقطن والأرز وغيرها لحساب الجمعية الزراعية والأهالي والشركات، كان يكتف بتطييب خاطرهم خاتما هذا بجمله اشتهر بها، طفل والأطفال دوما يجلبون المتاعب لأهاليهم، سامحوه، الاسم (خالد نعمان مطاوع)، بالكاد حصل على شهادة الصنائع ، من يومه وهو متمرد، كان تحصيله التعليمي قليلا وبمشقة وكان يقوم كل عام بتعديل درجات شهادته بمعاونة بعض زملائه، عندما انتهى من التعليم الصناعي، قرر الذهاب الى أوروبا، وبيوم صحا الأب والأم لم

Edit with WPS Office

يجداه، قالا ربما كعادته خرج، ولكنه لم يعد وطال انتظارهما، لم تلفت نظرهما هذه القصاصة الورقية الملقاة على فراشه، بعد مرور عدة أيام وبعد أن تقرحت عيون الأم، وزادت كهولة الأب كثيرا، الأم دخلت إلى حجرة الابن لإعادة ترتيبها، وقعت عيناها على القصاصة، فتحت قرأت.

* أنا سأسافر إلى أوروبا، ربما أعوض خيبتي التي تأبى إلا مرافقتي، سامحوني غادرت بلا وداع، أنا ما صدقت وجدت صديقا لى يصحبني معه برحلة السفر رغم يساره المالي، والده رجل صاحب سلطة، ومؤكد له معارف بالدولة الأوربية التي سنذهب إليها، سامحوني و ادعوا لي، رحلت لأغير من نفسى ومن نظرة الناس إلي، الناس الذين يحرضون أبناءهم على عدم الاقتراب مني، فأصبحت منبوذا، سأعود مؤكدا وأنا إنسان آخر، دعواتكم.

لم يكن أمامهما إلا البكاء المصحوب بالدعاء، وكان رحيله سببا في مرض الأب والأم فقد ازدادت أعمارهما على غير الحقيقة، كان الابن الوحيد، كان يرسل إليهما رسائل مقتضبة السلام وطمأنهم عليه وليس أكثر من هذا، أحيانا كان يرسل حوالات بمبالغ قليلة، عرفوا من رسائله وحوالاته أنه بألمانيا، على مدار أكثر من عشرة أعوام لم يفكر بزيارة القرية وأهله، كل يوم كان يمر كانت الكهولة تمسك بتلابيب الأب والأم، فكر بالنزول إلى القرية بعد أكثر من خمسة عشر عاما، وعندما نزل فوجيء أن هناك جنازة حاشدة بالقرية بأكملها وراء الجثمان، سأل أحدهم من الذى مات، رد عليه (الحاج نعمان مطاوع)، كان الذهول قد تملكه، بكى كثيراً، بعض الأهالي عرفوه رغم تغير هيئته، واسوه، أصر على عمل سرادق عزاء، دخل على أمه، لايصدق ما يرى، لقد أصبحت ضامرة الجسد، بكى بين يديها وهى اكتفت بالرد عليه قائلة.

* أبوك كان ينتظرك وعندما مل من الانتظار ذهب إلى خالقه.

السرادق كان لا يفرغ من المعزين، الرجل كان محبوبا من الجميع، مكث ب القرية عشرة أيام، وأعلن الرحيل بعد أن جلب لأمه سيدة ترعاها أثناء غيابه، ومنحها راتب عام بالكامل مخبرا لها أنه سيرسل لها كل عام ما

Edit with WPS Office

يعادل راتبها، الأم عاودت البكاء، حاولت معه أن يستقر معها، أخبرها أنه لم يعد وحيدا، هناك أسرة تنتظره، أخبرها أنه تزوج وله طفلان، رجته كثيرا أن لا يطيل الغياب ويحضر مع أولاده وزوجته لتراهم قبل اللحاق بأبيه، وعدها أن يفعل، سافر وطال سفره لسنوات لا يعرف أحد عددها، ا لأم تزداد مرضا وكهولة، لم يفكر بالزيارة ولو للحظة، كان شغله الشاغل هو جمع المال بشراهة، كان قد تزوج بعد وجوده بألمانيا بعامين، من سيدة تكبره لأكثر من خمسة أعوام، أرملة ثرية جدا، لم تنجب من زوجها، جذبها بوسامته وبلغته التي يعبر بها، تزوجها مؤكدا ليس حبا لها بل الحب الأول لثرائها، أنجب منها بنتا وولدين، كل يوم يمر عليه تزداد تخمته الثرائية من مال وعقارات، والقدر تصاريفه العجيبة، مشهد تشييع جثمان أبيه وتواجده صدفة يتكرر ، حدث نفس المشهد بحذافيره مرة أخرى ووجوده مصادفة أثناء تشييع جنازتها، انقطع الخيط الأخير الذى يربطه بالقرية، ولكنه لم يفرط بالبيت المبنى على مساحة كبيرة والمكان مميز وأغلقه، طال غيابه هذه المرة لأكثر من عشرين عاما، وكان حضوره مفاجئا، جاء بصحبة أولاد ه، ثار تساؤل من أهل القرية عن زوجته، لم يجدوا إجابة باللحظة والتو، جاءت إليهم بعد أسابيع وعن طريق مجموعته التي لا تتركه للنوم وان كانوا يتمنون أن يظلوا جاثمين على أنفاسه طوال الوقت بأن الزوجة ماتت من سنوات، أوكل تجهيز البيت على شكل مغاير لما هو متواجد بالقرية وربما بالمركز، أقام خلال التجهيزات بأحد فنادق القاهرة، يأتي وحده لمتابعة الأعمال، أولاده وزوجاتهم وزوج الابنة انشغلوا بالرحلات والحفلات بالمدينة، لم تستهويهم الإقامة بالريف، بظرف شهور كان البيت قد تحول إلى قصر، ارتفع بالبناء لأدوار عدة، جهزه بالأثاث الراقي، كان أهل القرية يمرون أمامه وهم بحالة ذهول، المبنى شديد الفخامة لم يروه من قبل, عاد إليه ومعه الأولاد للإقامة به رغم بعض الامتعاض من أولاده ولكنه تغلب على هذا بتوفير كل أنواع التكنولوجيا من شاشات تليفزيونية وشاشات عرض ، وغيرها مما تفرزه الأيام من تكنولوجيا، التف حوله مجموعة ممن لا عمل لهم ولا حياة لهم إلا التسول ومجالسة من يرحب بهم، يتملقونه ويثنون عليه وهو سعيد تنتفخ مسامعه ويتلون وجهه فرحا، أدخل

Edit with WPS Office

أحدهم برأسه أن يشترى أراضي، الأرض أسعارها بتزايد، وافق، يدلونه على قطع الأراضي المعروضة للبيع، يتفقون مع البائع على سعر مغالى به نظير حصولهم على. جزء من السعر، تابعوا تحركات (محمد البرنس)، كلما علموا أنه بطريق شراء أرض يسرعون إلى البائع يخبرونه أنهم سيأتون له بسعر أعلى، البرنس لم يهتم، كعادته يقول، الرزق رزق الله ومن له نصيب بشيء جاء إليه، استمر الأمر لسنوات، (خالد) تزداد أعداد المنتفعين من حوله، مأكل ومشرب وسهرات وأموال تهبط عليهم بلا طلب وبلا عدد، علاقته بأهل القرية ليست جيدة، يرون به غرورا وتعاليا، حتى جاء يوم وكان قد أفرط بالشراب، خرج للجلوس أمام القصر، يضع ساقا فوق ساق، مرتديا بدلة شديدة الفخامة، يتبادل الحديث مع مريديه الذين على استعداد لعمل عجين الفلاحة حتى تستمر منافعهم، فجأة صرخ بصوت عال دهش له الجميع.

* المال يشترى كل شيء حتى الناس، وأنا أملك أموالا بلا إحصاء، إذا أستطيع شراء كل الناس. أستطيع شراء الذمم والضمائر، كررها مرات ومرات.

وعلت قهقهاته، كان هناك من يمر أمامهم، سمعوا هذا القول، أصابهم بكرامتهم، القول انتقل سريعا حتى علمت به القرية، ذهب إليه البعض من رجالات القرية، سألوه عن صحة ما قال، لم يهتم بسؤالهم، قال نعم قلت وسأقول بالمال تستطيع أن تشترى كل شيء، حتى البشر، احتدوا عليه وصاحوا بوجهه.

* المال ممكن يشترى من يشبهك ممن هو نسى صلة الرحم وباعها من أجل مال زائل، من لا يحترمنا لا بقاء له هنا. حاول إفهامهم أن قوله هذا يقصد به أناس بأعينهم وليس الكل، لم يتجاوبوا مع مبرره، وطلبوا منه المغادرة والعودة إلى ألمانيا، عرضوا عليه أن يبيع البيت وأراضيه، رفض بتاتا وصرخ بهم، لن أبيع شيئا، البيت هو ما بقي لي من ذكرى من فرطت بهم، كل ركن يذكرني بهم ولن أسمح لنفسي أن أخذلهم مرة أخرى، طال الجدال بينهم، بالأخير توصلوا لحل يرضي الجميع، يغادر

Edit with WPS Office

على أن يحضر كل فترة لمراعاة البيت والأراضي التي اشتراها، وافقوه ورشحوا له أحدهم للإشراف على أرضه، وافقهم على اختيارهم لأنه كان سمع كثيرا عن أمانة (محمود السني)، والبيت أغلفه بالكثير من ألوان الإغلاق وأخذ منهم عهدا بالحفاظ عليه وتوفير الحماية له من السطو أو الإتلاف، العمدة وكان حاضرا قرر تخصيص أحد الخفراء للمرور بشكل دائم ليلا، أخبروه أيضا أن ريع الأرض سيودع له بحسابه بالبنك الذى يحدده لهم، بعد أيام غادر عائدا إلى ألمانيا، وصار يأتي وحيدا كل فترة يعيش بالبيت لأيام، يلتف به الذين لا عمل لهم إلا التنقل بين الموائد، من هم على استعداد لتزييف مشاعرهم وضمائرهم، كان يعيش بعزلة ولكنه لا يلق بالا لهذا، فقد تعلم من سنوات الغربة ألا يحرك ساكنا، تعلم أن لا يسمح لدمائه أن تثور ، يقضى أيامه التي تمضى سريعا ويغادر، ولكن من به طبع لا يبتعد عنه، حال وجودة بالقرية يتدخل بشكل غير مباشر في الكثير من أمورها، حال اختيار مجالس إدارات لمركز الشباب يسدد قيمة الاشتراكات ليكون منهم جبهة تساعد على نجاح أشخاص بأعينهم، وكذلك الحال بمجالس الآباء بالمدارس، أو الوقوف بجانب مرشح للمجالس النيابية لا يلق قبولا لدى أهل القرية، لا يعنيه إن كان له شعبية أم لا، كل ما يهمه أن يسير عكس التيار يشجعه على هذا جوقة المنتفعين الذين يزدادون كل عودة له، كان دوما يشارك بالجنازات والأفراح بلا أي دعوات توجه له ، كان يحاول أن يجد نفسه واحدا منهم، ولكنهم كانوا ينظرون إليه على أنه نبت شيطاني، من يفرط بأهله من أجل المال يستطيع أن يفرط بأي شئ، يسير وهم خلفه مثل تشريفة رئاسية، وكان ينجح إلى حد ما بماله بالسيطرة على هذه الأمور، هو من الصنف الذى يبحث عن تواجد له لإثبات ذاته حتى لو كان هذا على غير المألوف والمعتاد، رغم من يلتف حوله ورغم يساره المالي إلا أنه كان يعيش غريبا، لا وجود له بين أهل القرية، الغربة قرينة خطواته وحياته، استمر ذهابه ومجيؤه لقرابة العشرة أعوام حتى كان ذات صباح، أتت ثلته المعتادة، جلسوا القرفصاء كعادتهم أمام باب البيت، طال انتظارهم ولم يفتح الباب، طال انتظارهم حتى اقترب أذان الظهر، هم يعلمون أنه بالداخل، انتابهم القلق، هرولوا إلى العمدة وأخبروه

Edit with WPS Office

بهواجسهم، سارع بالاتصال بالمركز عارضا الأمر والتخوف، نصف ساعة وكانت صوت سيارات النجدة يملأ المكان، الأهالي خرجوا على صوتها، هرولوا وراء السيارات، قام كبير الشرطة بطرق الباب ورجاله مرات، ولا جدوى مما جعله يصدر أمرا بفتح الباب عنوة، أشار بيده طالبا التصدي لأي محاولة من الأهالي للدخول، دخل بصحبة بعض رجاله والعمدة ونائبة، أخذوا ينادون عليه لا رد يأتي إليهم سوى صدى أصواتهم، دخلوا إلى حجرة نومه، مستلقى على سريرة بملابس النوم، تخيلوا أنه غارق بـ النوم، هزه العمدة مرارا بطلب من كبير الشرطة، ولا حركة، وضع أذنه على صدرة لا وجود لأنفاس تفيد أنه حي، رفع العمدة نظره قائلا، هو ميت، سارع الضابط بالاتصال بالطبيب الشرعي ليفيد سبب الوفاة، جاء مسرعا، أجرى الكشف الطبي وقال إن الموت طبيعي، هبوط حاد بالدورة الدموية، كتب تقريره وجاءت الموافقة على دفنه حيث لا شبهة جنائية، ساعات وكان الجثمان جاهزا لمواراته الثرى، القرية كلها خرجت تشيعه، الريف بهذه اللحظات ينسى كل شيء، يتذكر الواجب أغلق البيت مع تشديد الحراسة، هم لا يعرفون طريقا كي يخبروا أولاده أسابيع مرت وأتى ابن له ليطمئن عليه، هم حاولوا الاتصال به مرارا ولا طائل، علم بـ الوفاة لم يمتعض فقط طلب زيارة مقبرته، أمضى أمامها ساعة يتمتم بلغته الأجنبية، عاد بعدها إلى البيت، مكث به أيام، وغادر تاركا البيت تحت حراسة العمدة على وعد بمعاودة الزيارات على فترات متقاربة هو وإخوته ، أتى أحد الأبناء شبيها لأبيه تماما ملامحا وجسدا، فتح البيت وأقام به وكان على خلاف طباع أبيه، تقارب وتباسط مع الجميع، شاركهم كل مناسباتهم، يجلس أمام البيت عصر كل يوم أمامه مائدة مليئة بصنوف عدة من الحلوى، ينادى الأطفال يعطيهم ويمرر يده على رؤوسهم حنانا، لم يستغرق الأمر طويلا حتى وجد نفسه كأنه عاش هنا طوال عمره رغم حديثه المصحوب باللكنة الأجنبية، ذهب مرة واحدة إلى ألمانيا، غاب أسابيع وعاد بصحبة زوجة شاهقة البياض والشعر الأ شقر المنسدل حتى ردفيها، عاش وعاشت بين أهل القرية مع مضي الوقت نسوا لكنتهم وانصهروا داخل بوتقة كل شيء بالقرية، والجميل أنه كان حريصا بأن لا يكون له من يلتف حوله من أجل انتفاعات

Edit with WPS Office

ومصالح، وأصبح كأنه ولد وعاش كل سنواته بالقرية ولم يغادرها، يرتدي الجلباب ويجلس على المصاطب يتناول الشاي أو لقيمات من اللبن الرائب، تدخل البيت تجد بصالته صورة كبيرة للجد وأخرى للجدة، بحث عن حكاياتهم لدى معمري القرية، يسمع طرف من حكايات جده وجدته من هنا وهناك، يحاول لملمة الحكايا ليصنع منها بالنهاية كل الحكاية التي يفهم منها الجد والجد، ولكن لم يعرف فالحكايات التي سمعها متناقضة بها ما لا يستوعبه العقل ولا يصدقه، الحكايات بمجتمعنا تزداد إلى آلاف الحكايات وكثيرا ما تنجرف الى الخيال والتزييف، ولكنه عشق سماع الحكايا عن كل شيء وتحقق أن لكل شيء على وجه الارض له حكاياته، كان دوما يردد هؤلاء جذوري، والإنسان بلا جذور كأنه ريشة فى مهب الريح، تصوف وكان يحضر حلقات الذكر حتى أن البعض أطلق عليه لقب (الشيخ وحيد),ونسى الجميع سيرة أبيه ورحبوا له كل الترحيب، الأيام تسير مع (محمد البرنس), هذا اللقب الذى أطلقته عليه (تحية) منذ اللقاء الأول ومازالت تناديه به للآن، سارت الأيام كما كان يحلم، البركة بالرزق، وزيادة مساحة العلاقات، وقيامه بزيارة الحاج (مختار) على فترات، لاشيء ينغص معيشته، الأم أصابتها كل أمراض الشيخوخة، جاب بها على الأطباء، التعافي كان بطيئا، إلى أن كان يوم صحا من نومه على صرخات ألم تصدر من غرفة أمه، هرول إليها وجدها بحالة غياب عن الوعى، تصرخ وتنادى على زوجها:

* (عيسوي) انتظرني.

تناديه وتنادى أباها وأمها، ليست واعية ، أسرع يستدعى طبيبا، الطبيب بعد مناظرة الحالة صارحه أنها بلحظاتها الأخيرة، ربما يطول بها هذا اللا وعي لأيام أو ساعات الله أعلم، حديث الدكتور أصابه بالهم والقلق، لم يغادر حجرتها، كان صراخها يؤلمه، ويبكى لأنه لا يملك من الأمر شيئا، الشفاء أو عدمه هو قرار من الله، ثلاثة أيام وصراخها ونداؤها على الأموات من أهلها، باللحظات أفاقت من غيبوبتها ومدت يدها احتوت يده ضغطت عليها بقوة شديدة ونظرت إليه وقذفت من فمها الكلمات الأ

Edit with WPS Office

أخيرة بحياتها.

* قلبي وربي راضين عليك يا ولدي، أدفن بالقرب من أبيك .

ونطقت الشهادة بصوت واهن وأسلمت الروح إلى بارئها، بهذا اليوم بكى وكأنه لم يبك من قبل، استجمع رباطة جأشه، وطلب من (تحية) أن تقوم بتنفيذ وصية الأم التى قالت لهم من سنوات أن من يقوم على غسلها هي (تحية), استدعت زوجة أخيها وسيدة أخرى تعمل بغسيل الموتى وتكفينهم، قام بالاتصال بإخوته المقيمين بالقرية، أخبرهم بالوفاة وأن يعدوا المقبرة، ويذيعوا الخبر بالقرية، وأنه سيأتي مع سيارة الإ سعاف هو ومن معه من إخوته وأبنائهم، تمت كل الأشياء المقرونة بـ الوفاة بيسر، بعض رجالات القرية ونسائها أصروا على مصاحبة الجثمان حتى مثواه الأخير، القرية كلها خرجت عن بكرة أبيها لتشييع الجثمان، سرادق كبير للغاية أقيم لاستقبال المعزين، السرادق لا يفرغ مطلقا، المقريء يضطر لقراءة قصار السور حتى يدخل المتواجدين بكثرة خارج السرادق، استمر الأمر على مدار ثلاثة أيام، ثم كان استقبال المعزين بـ البيت، على مدار أسبوع كامل، عاد إلى تجارته ولكنه عاد وكأنه قد أصبح بعمر السبعين أو يزيد، غابت عنه الابتسامة التي كانت تزين وجهه ، الأم هي اليتم الحقيقي للإنسان، أقبل على تجارته بشيء من الجهود المتناهية محاولة للنسيان، توسعت تجارته وزادت فروعه، الأولاد يكبرون أمام عينيه، كان قد ألحقهم بمدارس خاصة كبرى، أراد أن يرى بهم ما كان يحلم به، الكل كان منكب على التعليم بشكل يبشر بنجاحات وتميز إ لا (عيسوي) كان غير مقبل على التعليم، عشق اللعب والسهر، ما إن حصل على الشهادة الإعدادية إلا وصارح أبيه أن لا رغبة لديه للتعليم وأنه راغب في العمل معه، بعد محاولات مضنية لإثنائه عن هذا التفكير وافقه، الأولاد الآخرون كان بهم شغف للتعلم، وهذا كان يثلج صدره الذي كان به بعض الوجع، لعدم رغبة ابنه البكري بالتعليم، ولكنه في قرارة نفسه قال، لنمنحه الفرصة ربما يكون فعلا مفيدا، وهذا ما أثبتته الأيام، استوعب العمل سريعا، وكان صاحب حنكة بالتعامل مع كل المجريات، أو لاده نالوا من التعليم أقصى مدى، وكانوا من المشهود لهم بالنبوغ، لم

Edit with WPS Office

يكتفوا بالتعليم الجامعي، أصروا على استكمال الدراسة بالخارج، كلهم أخذوا طريق الطب، لكل منهم تخصصه الذى برع فيه, حتى باختيارهم لزوجاتهم وزوج الابنة كان صائبا لحد كبير، رغم أن أولاده الذكور تزوجوا من أجنبيات، ولكنهم كانوا قريبي الشبه بالطباع المصرية، وزوج الابنة كان طبيبا شهيرا، طلب منهم أن يتجمعوا جميعا بالبيت على أوقات متقاربة وأن يتفقوا على مواعيد مناسبة للجميع، وهو ما تم تنفيذه بشكل تام، وأضاف مطلبا كان بكل وقت يجالسهم به أن لا ينزعوا عنهم عباءة مجتمعهم الذي عاشوا به وعاش بهم، طالبهم بالحفاظ على التقاليد والقيم التي هي عنوان الإنسان إن نزعها أصبح مثل ريشة في مهب الريح، يتمرجح يمنة ويسرة دون أن يستطيع الوقوف على أرض صلبة ، كلما مر وقت كان يزداد حيثية ومكانة بالقرية، حتى أيقن أنه وجد لنفسه مكانا قويا مع أهلها، لا يتذكر أنه بيوم من الأيام خرج عن شعوره، منذ قرابة العشر سنوات جاءته رسالة من الحاج (محفوظ العربي) عن طريق ابن له بضرورة الحضور على وجه السرعة، هرع من فوره إليه، دخل إلى غرفة نومه، وجده قد فقد الكثير من وزنه،وضاعت منه أمارات الحياة إلى حد كبير، انطفأ بريق عينيه الذي كان معروفا به، مال عليه مقبلا رأسه ويديه، أشار إليه بالجلوس بجانبه على الفراش، طلب من الابن أن يستدعي باقي إخوته، أتوا مسرعين أشار لهم بـ الجلوس قريبين منه، تكلم بصوت شديد الوهن.

* أظن جميعكم تعرفون (محمد) جيدا، وتعرفون كم أنا أقدره وأعتبره واحدا منكم، من أول لحظة عرفته وجدت فيه الأصالة والشهامة والأ مانة، كل هذا تأكد مع مرور الزمن، وأنا بحالتي الصحية هذا، وشعوري بدنو الأجل، جمعتكم لأقول لكم، حافظوا على ميراث تعبت كثيرا حتى كان مثلما ترونه الآن، أعرف أن الكثير منكم لا يعرف شيئا عن تجارتنا، ولكن ما أقوله أمانة بأعناقكم، حافظوا على ما بنيت, لا يجب أن يغيب اسم (العربي) من على المحلات أيا كانت المغريات، (محمد) معكم يعلمكم ويفهمكم، وأنا واثق من أمانته معكم حتى تستطيعوا الوقوف بقوة وصلابة بالسوق، عاهدوني على تنفيذ الوصية.

Edit with WPS Office

تمت المعاهدة، تهللت أساريره، أشار لأولاده بالخروج استبقى(محمدا), أمسك بيده بقوة وقال بصوت أصابته القوة.

* لا تجعلهم يغيبون عن عينيك، تابع شئونهم، حتى تتأكد أنهم أصبحوا على دراية بالسوق، وإن سولت لهم أنفسهم بالبيع، تكون أنت المشترى، فقط لي وصية عندك أنت، أن يظل اسم (العربي) كما هو على واجهات المحلات، عدني بهذا.

عاهده ومال على يديه ورأ سه وأخذ يقبله كثيرا والدموع تنساب بشدة، من داخله كاد الشعور يقول إن هذا اللقاء الأخير يكون للحاج على وجه الحياة، طلب الإذن بالانصراف، هو إذن للهرب من هذه اللحظة القاسية، خرج يهرول خافيا دموعه، قامعا لصوت بكائه، قدماه تكادان تلتفان حول بعضهما، الرجل ليس مجرد رجل فتح له باب الحياة والعمل، هو عنده الأب والراعي والناصح الأمين، ماكاد يصل إلى قرب الباب حتى تعالى الصراخ، أدرك حينها أن أباه الروحي قد لبى النداء، لم يشعر بنفسه إلا أن الدوار أصابه وكاد يغشى عليه، تساند على الجدار وجلس القرفصاء واضعاً رأسه بين ساقيه، يبكى ويجهش بالبكاء، يمر برأسه شريط معرفته بالحاج، كلما تذكر مشهدا كلما زاد عويله، وكلما سمع الصراخ يزداد بكاءا، تمالك نفسه وأسرع بهرولة واهنة إلى الداخل، وجد الكل يبكى مر البكاء، والنساء يولولون بهستيريا، طلب من الأبناء أن يهدأوا للنظر في الإجراءات، ثم عليهم إرسال الخبر إلى أهل القرية ليستعدوا، طلب منهم تأجيل تشيع الجثمان ليوم حتى يتم تعريف الجميع، الحاج له علاقاته وله محبوه، وافقوه على الرأي وأخذوا بالاتصالات بكل المعارف وأهل القرية، لم تمض ساعات إلا وكان البيت محاطا بالمئات من الناس، السيارات تأتي محملة، حتى أهل القرية لم ينتظروا جاؤوا مهرولين، تم تجهيز كل الإجراءات وتم الاتفاق أنه عند العاشرة من صباح الغد تبدأ رحلة الذهاب للقرية لتشييع جثمانه وإقامة سرادق العزاء، لم يغمض لأحد جفن، الكل يتحدث عن الحاج وأفضاله على الجميع وبعض مواقفه التي لا تنسى، عند الصباح تم تجهيز كل شيء، عربة الإسعاف حملت الجثمان، وقافلة السيارات بكل أنواعها يسير خلفها

Edit with WPS Office

على مسافات طويلة، وسائل الإعلام أيضا جاءت بكل ألوانها، حتى إن الجميع فوجيء بطائرة تسير بمحاذاة الرحلة وتصور الجنازة، عند الوصول للقرية كانت قد خرجت بالكامل وعن بكرة أبيها وأيضا بعض البلدان المجاورة، العويل والصراخ والبكاء وكل ألوان الحزن والأسى هي السمة الأساسية لكل الوجوه، حتى بعض رجالات الدولة أتوا للمشاركة في مراسم الجنازة، لثلاث أيام وليال، وفود المشيعين لا تنقطع، أذيعت لقطات من الجنازة ببعض القنوات، عاد من مراسم العزاء تملؤه كل ألوان الحزن والكآبة، بل إنه أغلق الباب على نفسه لأيام وعافت نفسه الطعام إلا لقيمات قليلة بعد رجاءات من زوجته، تمر الأيام بحلوها ومرها وهو لا يتوانى عن زيارة أبناء الحاج، ويتابع تجارته التي تتنامى، مرما يقرب من أربعين عاما وهو زوج لم يحدث أن أحس بأي ملل أو تغير، مازالت حريصة على مناداته (البرنس), مازالت هي من يقوم بعمل الطعام له رغم وجود من يعمل بالبيت، مازالت تمد يدها باللقيمات الأ ولى وتطعمه بيدها، مازالت تقوم بوضع عباءته عليه، تربت عليه تدعو له ، بعد أن ترك الإدارة لولده(عيسوي) أصبح يكتفي بالجلوس أمام المحل، يتابع عن كثب مسيرة العمل، تنفرج أساريره عندما يرى أن دولاب العمل يسير على ذات منهجه، أحيانا قليلة ما يتدخل لإبداء النصح والرأي ببعض الأمور. كثيرا ما يطلب من ابنه أن يصحبه بجوله على أفرع محلا ته، يطمئن على سير العمل حسبما وضع أساسه، محلاته يتولى إداراتها أولاد إخوته، يجلس يستمع بما يشبه التقرير عن كل شيء خلال الفترة الماضية وما ينقصهم من بضائع وعن بضائع يوجد طلب شديد عليها وأخرى الطلب شحيح عليها، يعود بعدها منفرج الأسارير وقد علت قسماته كل ألوان السعادة لنجاحاته، يتمتم من يعرف الله الله يكون دائما راعيا له.

Edit with WPS Office

3

رشوان جابر الصعيدي

انتبه من نومه على صوت أذان يرتفع قريبا منهم، نهض متخيلا أنه آذان العصر، هم ناموا منذ الظهيرة ولم يشعر أيا منهم بالوقت الذي مر بهم وهم نيام، نهض سريعا للوضوء والإسراع للحاق بالصلاة، أصدر ضجيجا لينبه النائمين الزوجة والأبناء، استيقظوا بكسل كبير، قال لهم إنه خارج للصلاة رغم أنه لا يعلم أي صلاة هي القائمة، طالبهم بإعداد

Edit with WPS Office

وجبة حين يعود يجدها جاهزة، لقد ناموا دون تناول طعام، خرج فوجيء بالظلام يلف المكان، إنتابته الدهشة، أي توقيت هذا، ظل سائرا بهدوء يتأمل كل المحيط به من مبان و أشجار، واللمبات المضيئة الموضوعة على كامل السور، وعلى البعد نار مشتعلة، ورجل يصلى لم يعرفه بسبب الظلام وعدم وجود إضاءة قوية توضح له ملامح الرجل، هرول حتى يحاذي من يصلي، زاد اقترابه عرف الرجل أنه (مخيمر), صلى وراءه، أكمل الصلاة رغم انتهائها من (مخيمر), جلس بجواره على (النجيلة)، لم يتحدثا واكتفيا بتبادل النظر، أتت زوجة (مخيمر) تحمل صينية وأكواب وإبريق يتصاعد من فوهته بخار ينبئ عن ماء مغلى، وطبقا به بعض المخبوزات الريفية، وضعت ما تحمل وأسرعت بالذهاب، أشار إليه بأن يتناول شيئا، مد يده وأخذ قطعة صغيرة من الموجود مجاملة لا أكثر، أسرع بشرب الشاي سريعا ونهض آخذا الطريق للعودة، ألقى السلام على (مخيمر) على عجالة ولم ينتظر الرد، سار بشكل أقرب للهرولة استدعت دهشة (مخيمر) الذى ضرب كفا بكف، الرجل كما أتى كما ذهب لم ينطق بكلمة ، دخل إلى السكن وجد الطعام جاهزا وموضوعا على مائدة، أخذ يلتقم اللقيمات المغموسة بالطعام المتواجد، كان يأكل وهو شارد، اكتفى بقليل من الطعام، نهض ووجد نفسه يصعد إلى السطوح، ارتكن بجسده إلى السور جالساً القرفصاء، أشعل سيجارة وأخذ ينفث دخانها بشكل مبالغ فيه، بعض القلق يعتريه ، طوال سنوات عمره التي تجاوزت الثلاثين، وهو لم يغادر قصر الباشا، ولد فيه ووجد أباه وجده يعملان بكل الجد، شاهد تعامل الباشا معهم، كان دائما هاشا باشا معهم، لا يتذكر حتى لحظة وفاة الباشا أنه شاهده لمرة واحدة ضجرا أو متذمرا، أو نهرهم بصوت عال يصيب كرامتهم، تمتم.

* الله يرحمك ياباشا.

القلق والخوف مما هو آت الذي لا يعلمه إلا الله، السيجارة لا تغادر أصابعه، لا يدري عدد ما دخنه، آفاق من شروده قائلا بصوت واضح :.

* لتكن مشيئة الله.

Edit with WPS Office

في فجر اليوم التالي هرع يسابق خطواته إلى اللحاق بهم وهم خارجون لصلاة الفجر، منذ بدايات عمره اعتاد أن يرافق الأب وهو بسنواته الأولى للصلاة، وكان الأب دوما يحفزه للصلاة، صلى معهم جماعة وجلس وسطهم للدعاء والابتهال، خرج معهم كان يسير كيفما يسيرون، عندما أخذ طريقه للذهاب لمكان إقامته، ناداه الحاج (عيسوي).

* انتظر يا (رشوان) سوف نتناول الإفطار سويا هنا.

وأشار إلى (مخيمر) أن يذهب يطلب الإفطار، وأن يخبرهم بوجود أخر معه، أشار إليه بالجلوس ووجه له الحديث.

* تعودنا مع الجميع أنهم من أهلنا لافرق بين أحد وآخر، أردت أن أقول لك هذا حتى لا تشعر بأي قلق، كن كأنك ولدت وعشت هنا، تعامل بعفوية لا تضع حواجز بينك وبين الآخرين من هذه اللحظة وواثق أنهم يستقبلونك أيضا كأنك عائد إليهم بعد غياب، بعد الإفطار وتناول الشاي، احك ما تريد أن تحكيه، أنا أعرف أن كل إنسان له ما يريد الاحتفاظ به.

* ليس لدي ما أخفيه ثم أنت قلت لا تضع حواجز وأنا إن أخفيت شيئا أكون بعيدا عن ثقتكم، وأنا لا أريد إلا أن أعيش بينكم كتابا مفتوحا تماما. وتعلمت من جدي رحمه الله وأبى ألا أخفى شيئا، الإخفاء يضع حواجز تصعب إزاحتها.

مد يده وربت على يده عددا من المرات توحى لثقته به، أخذا يتناولان الطعام بكل شهية، يداعبه(عيسوي) بين اللحظات ببعض الكلمات، أتى لهم الشاي على الفور دون إنتظار الطلب وكأن من بالبيت يعرفون وقت تناول الطعام، تناولاه على عجالة، بعدها نادى على رجل لعله كبير العمال، قذف إليه بتعليمات اليوم والعمل وبعدها أشار إليه بالانصراف ومتابعة العمل جيدا طالبا أن تسير الأمور بلا أي خلل أو مشاكل، التفت بعدها إلى (رشوان), طالبا منه أن يبدأ حكايته، مؤكدا لمعرفة سبب ثقة الباشا به لأنه من عادة غالبية أصحاب الطبقة المخملية عدم منح الثقة مطلقة للعاملين لديهم.

Edit with WPS Office

* ولدت وجدت نفسى أنا وأختي الوحيدة، نعيش مع الأب والأم بسرايا كبيرة بلا حدود بها مبان عدة، قصر الباشا وعائلته وبعض المباني لتخزين الحاصلات وتربية الجياد وبعضها لإقامة عدد من العاملين لديهم مع أسرهم، ما عرفته من خلال حكايات الجد الذي عايشته حتى عمر السابعة، أننا أساسا من (محلة نصر بالبحيرة)، وأن جدي تعرف على الباشا صدفة، الجد حسبما سمعت كان ابن لأسرة ميسورة الحال، أسرة لا علاقة لها إلا بالعمل بزراعتها وحياتها اليومية، ولكن أبي وكان الأوسط بين عدد كبير من الأعمام والعمات كان شاردا عن العائلة، كان يختفي با لأيام والليالي دون أن يعلم أحد بسبب ذهابه أو سبب إيابه، واعتادت العائلة منه هذا فلم تهتم مطلقا بسؤاله، استمر الأمر لفترة لم يذكروا لي زمنها، حتى جاء يوم، عمدة البلدة وأظنني أتذكر اسمه رغم مرور سنوات طويلة من كثرة ما تردد من الجد والأب (بهيج الرملي), أرسل باستدعاء والد جدي، وكان بينهم مودة حيث يرتبطان بصلة مصاهرة، جلسا على إنفراد، أخبره أن ابنه (محروس) يذهب إلى القاهرة أحياناً و الى الإسكندرية أحيانا أخرى، ويشارك مع بعض الشباب والرجال في عمليات اغتيال الجنود الإنجليز، عند هذه الكلمات قذف والد جدي العمدة بسؤال.

* وكيف علمت يا عمدة؟

* جاء إلى أحد العاملين بالبوليس تجمعني به علاقة جيدة للغاية واخبرني بهذا وقال أن ابنك تحت المراقبة لحين ضبطه متلبساً يوما ما، ومن أجلك أرسلت لك لتجعله يغادر القرية ويتوقف عما يقوم به، لحين تهدأ الأمور، أنت تعرف جيدا يا شيخ (محمد) أن القرية كلها ستتعرض للكثير من المشاكل من جراء هذا، رجاء إجلس معه وأقنعه بالرحيل بعيدا بعيدا حتى يتم نسيان الأمر برمته.

ما كان من الجد إلا أن قطب جبينه، وأومأ برأسه بالموافقة وهمس بصوت خفيض.

Edit with WPS Office

* حاضر يا عمدة سوف يكون ما تريد وما نريد بمشيئة الله.

خرج من فوره سائرا بخطوات متسارعة ولكن بها بعض التعثر من شدة تفكير بما سمع، كان يتمتم بداخله.

* لماذا يا (محروس) تضعنا بهذا المأزق، الله أعلم هل نستطيع إنقاذك أم هم يسبقوننا ويقتنصوك، ربنا هو الستار.

دخل البيت الكبير وهو يغلى من داخله، وماذا بعد أن يطلب من إبنه الرحيل عن القرية؟, من يضمن له أن أيديهم لن تطاله؟, الحيرة أمسكت به، ولكن لم يكن أمامه بد من التسليم لما طلبه العمدة، همس بداخله.

* المكتوب ليس له من مهروب.

هدأ قليلا ودخل حجرته الخاصة، واضعا يده على رأسه، صدره يعلو ويهبط وأنفاسه ما بين شهيق وزفير، نادى بصوت عال على (محروس), كان على يقين أنه موجود، الابن بمنتسف العشرينات من العمر، أقبل مهرولا ووقف بين يدي أبيه، أشار إليه بأن يجلس بجانبه على الفراش، مد الأب يده وأمسك بمعصمه بشده ووجه له نظرات حادة بعض الشيء وخاطبه.

* منذ متى وأنت تقوم بهذا الفعل؟

* أي فعل يا أبي؟

* أنت تعرف تماما ما أقصده، مقاومتك للإنجليز وعمليات القتل التي تقوم بها.

* أبي لبلدنا حق علينا ولو كل منا قال ليس لي علاقة بأمرها نكون أشبه بمن يخونها ويفرط بها، وأنا مثلي مثل الكثيرين قررنا أن ندافع عنها بما نستطيع، وأعرف أنك شاركت بثورة عرابي وحاربت معه، ومازال بداخلك وجع بسبب الخيانات التي تمت، فلا تلومني على هذا.

طفرت الدموع من عين الأب وعاود الإمساك بمعصمه من جديد ضاغطا

Edit with WPS Office

بشدة عليه.

* لا ألومك ولا أستطيع أن ألومك فقط بلغني اليوم أن هناك من يتتبع خطواتك ويترصد بك، العمدة أخبرني بهذا من خلال أصدقاء له وطنيين يحبون البلد مثلك ولكن على طريقتهم وبما هو متاح لهم فعله، العمدة طلب مني أن اجعلك تترك القرية بل المديرية كلها إلى أبعد مكان تستطيع أن تصل اليه، وأنا أراه مطلبا يجب أن ينفذ رغم قسوته علي وعليك وعلى زوجتك وعلى طفلك الذي لم يبلغ العام بعد، ولكن علينا التحمل حتى تمر الأمور وحتى لا نخسرك، قبل أن تقول إن بلدي حق علي أؤيدك بهذا، ولكن لا تفعل هذا ولو لوقت معين حتى تغفل عيونهم عنك، الليلة مساءا ترحل بلا أن تخبر أحدا، دعني أنا أتكلم مع زوجتك بعد رحيلك وأنت كل فترة تأتي تحت جنح الظلام تطمئن علي وعلى أمك وأخواتك وزوجتك. هيا جهز حالك، غادر ولا تتجه إلى دمنهور، غادر عن طريق بعيد عن العمران وأظنك لديك دراية بالكثير من الطرق التي لا يعرفها الكثير، ربنا يرسل إليك ما يكون ونيس طريق، ادخل للنوم سويعات حتى تخرج بعد منتصف الليل حتى لا يدري أحد بخروجك، وجذبه الى صدره وقبله وتعانقت دموعهما سويا، ألقى بنفسه على فراشه وذهب بنوم عميق، صحا من نومه على نداء أبيه عليه، نهض مسرعا وجد الأب والأم والأخوة والزوجة تحمل رضيعها، مرر بصره عليهم، كاد أن يجهش بالبكاء ولكنه تمالك نفسه، ونهض ذاهبا إلى الحمام، ألقى ببعض الماء على وجهه ليفيق، عاد إليهم وأخذ يلقى بنفسه متنقلا بين ا لأحضان، أخذ ابنه الرضيع من زوجته، أخذ يقبله قبلات محمومة، بل وصل الأمر إلى الحديث معه وكأنه شاب أو رجل يفهم الحديث.

* مكتوب على أبوك الغربة والغياب عنك بوقت كان يلزمني أن أكون معك أتابع لحظات نموك، ولكنى أعدك لن يطول غيابي، سامحنى يا(محمود), أعدك لن أغيب.

أكمل هذه الكلمات واندفع مستديرا متناولا صرة بها بعض الملابس وقليل من الطعام وقنينة مياه، وبلا أي كلام اندفع خارجا رافضا أن

Edit with WPS Office

يلمح أحد الدموع التي بدأت تنساب من عينية، كان يعرف طريقا غير مأهولا بشكل كبير يصل به إلى ما بعد دمنهور، المهم أن يصل قبل انبلا ج النهار، كان يسرع الخطوات بشكل أشبه بالعدو، الظلام دامس للغاية لو لا أنه يعرف تفاصيل الطريق لأنه كان كثيرا ما يتخذه هربا من اقتفاء أثره لتعرض للكثير من العثرات، كان يحث الخطى وكل حين يهرول، فجأة وجد ضوء سيارة يكشف الطريق، أطلق ساقية للريح خوفا من أن يكون ممن يطاردونه، السيارة ترسل بوقها، وكلما سمع صوتها واقترابها منه كلما جد بالسير، اقتربت السيارة منه، وجد صوتا يناديه.

* يا أخ اسمعني، أنا فقدت الطريق وتائه، انتظر من يدلني على الطريق، لا أريد بك شر.

وقف وانتبه للكلام الذى تكرر أكثر من مرة، توقفت السيارة، ونزل رجل تجاوز الأربعين، وقف قبالته مرددا.

* ممكن تدلني الطريق حتى نصل العمران.

اكتفى بهز رأسه دلاله على معرفته، أشار إليه الرجل بالركوب بالمقعد المجاور له, ركب وهاجس الخوف يعتريه ربما كان الرجل أحد مطارديه وحديثه سبيل للإيقاع به، ولكنه أبعد هذا عن تفكيره، كان يشير له على الطريق وتعرجاته ومنحنياته، بعد نصف ساعه أو أكثر لاح العمران، وأصبحت الإضاءات تنير كل شيء، نظر إليه للمرة الأولى، رجل طويل، يرتدي بدلة أنيقة للغاية، شرد متسائلا .

* ما الذى يأتي برجل مثله إلى هذا الطريق؟،

أفاق على صوت الرجل يسأله.

* طريقك إلى أين حتى أصل بك إليه ردا لصنيعك معي؟.

لم يجبه بشيء، اكتفى بإرسال نظراته الحيرى له، الرجل فهم أنه متوجس خيفه، خاطبه ليبث الأمان إليه.

* لا تخف يا بني، انا (حازم باشا البدوي) كنت بواجب عزاء بالإ

Edit with WPS Office

إسكندرية والوقت داهمني ويبدو أني دخلت لهذا الطريق دون أن أعرف إلى أين يصل بي، والحمد لله ربنا أرسلك لي، تكلم بلا خوف وثق أنك من اللحظة ودون أن أعرف حكايتك تحت رعايتي وحمايتي لأنى أرى بك كثيراً من التخوف..

أصاب الارتياح دواخله إلى حد ما، وبعد قليل من التردد أطلق عقال الحديث. حكى له كل شيء دون مواربة شيء، وبعدما انتهى وجد الباشا يضع يده على كتفه ويربت عليه مرات، مما أزاح ما تبقى من هواجس الخوف، أطبق الصمت عليهما لبعض الوقت، دخلا إلى مدينة كفر الزيات، توقفت السيارة أمام أحد محلات الأطعمة، نزلا ودخلا، وأخذا يتناولان الطعام بشهية، رغم أن المكان لا يليق بالباشا، ولكن هذا كان ترسيخا لديه أن الرجل بسيط ولا يتعالى، عادا إلى السيارة، باغته الباشا.

* سوف تأتي معي وستكون من رجالي، أنا واثق من إخلاصك ووفائك، ثق أنك بأمان تام، وما كنت تفعله مع العساكر الإنجليز أمر يستحق أن تكرم عليه، ما رأيك؟.

* ليس لي أن أرفض عرضكم الكريم يا باشا، أنا اشعر بكل ارتياح، وبالفعل الله هو صاحب القرار وعلينا تنفيذه، أتشرف بالعمل لديكم.

* الأراضي والقصر وكل أملاكي بقرية (شنرة البحرية), مركز السنطة، مديرية الغربية، ولك أن تذهب لزيارة أهلك وقتما تريد، تذهب بك السيارة وتعود بك، هل أنت متزوج؟

* نعم من عامين ولي طفل أسميته (محمود) لم يبلغ العام بعد.

* إن أردت أن تأتي بهم نحضرهم.

* لا أظن الأب والأم يرضيان، هما يعتبران ابني عوضا عن عدم وجودي، لنترك الأمر يا باشا لقرار الله، الله هو العالم بالقادم وما علينا إلا الامتثال وإقراره.

* لندع الأمر لله والأيام، ستأتي معي وتتولى شئون الأراضي الزراعية لأ

Edit with WPS Office

أني أتوسم بك شهامة وواثق من أمانتك، نحن لا نتعامل مع من يعملون لدينا على أنهم أجراء، بل هم من أهلنا وسترى هذا بعينيك.

* معالي الباشا يكفيني أنك وثقت بي دون أن تعرفني من قبل، ثق تماما أني سوف أثبت لك أني استحق ثقتك.

* يا بني من يجاهد من أجل بلده بما يستطيع هذا أمر يعطي انطباعا بأنك على قدر كبير من الشهامة والإخلاص , وأنا أحب هذا النوع من الرجال، سوف أوفر لك ما يسعدك ويجعلك لا تغادرنا مطلقا.

* بمشيئة الله معالي الباشا.

دخلا إلى مشارف مدينة طنطا وتباشير الفجر تحمل النهار وأصوات الأ ذان ترتفع من عشرات المساجد، توقفا أمام أحد المساجد، وضع الباشا ذراعة على كتفه نوعاً من إزالة الرهبة عنه، دخلا للوضوء وللصلاة، بعد الصلاة سارا إلى أحد المطاعم الشهيرة بالمدينة، طلب الباشا الطعام، تناو لا الطعام بين بعض التساؤلات من الباشا عنه وعن عائلته، كان يجيبه بكل أريحية، تباسط الباشا أعطاه إحساسا أن الرجل إنسان بسيط لا يتعالى ولا يفرض سلطته على أحد، عادا للسيارة كان يسير بهدوء ، بعد ما يقرب من نصف ساعة أو أزيد قليلا كانا قد وصلا إلى (شنرة البحرية) من أعمال مديرية الغربية، توقفت السيارة أمام قصر منيف شديد الفخامة لدرجة أن قدميه توقفتا وأبت المسير دهشة بالقصر، وسؤال ينهش داخله، الباشا مع كل ثرائه وإمكانية أن يكون له قصور بـ المدن لماذا يصر على إقامته بهذه القرية؟, ناداه الباشا ليفيق من شروده، سار خلفه متمهلا يتلفت هنا وهناك مبهورا بما يشاهد، القصر وما يحيطه من حدائق وبناؤه على شكل لم يره من قبل، وكيف يرى وهو لم يغادر قريته الا للعمليات الليلة الخاصة بقتل الانجليز؟, الباشا ما إن اقترب من المدخل إلا وانفتحت البوابة على مصراعيها، وصفين من الرجال يرتدون زيا موحدا، رافعة الأيدي بالتحية مردفة ببعض كلمات الترحيب، اقترب أحدهم من الباشا الذى أعطاه مفاتيح السيارة، سار الباشا وجدي يسير

Edit with WPS Office

خلفه، جلسا بالبهو المقام خارج مدخل القصر، الصمت ران طويلا عليهما وكأن الباشا يرغب براحة القدمين من طول السفر وبذات الوقت يفكر ما الذى يمكن أن يقوم به جدي من عمل، فجأة علا صوت الباشا فأفاق هو أيضا من تفكيره، الباشا ينادى.

* (مبروك).

لم يكد ينتهى من الحرف الأخير من الاسم حتى كان هناك رجل فارع الطول يقف أمامه يضع عينيه إلى الأرض مرددا.

* أوامرك يا باشا.

* هذا أخوك (محروس الصعيدي) من اللحظة هذه هو واحد من أهل البيت، خذه إلى السكن الذى بالجهة البحرية أظنه خاليا، وإن كان ينقصه شيء لك أن تأتي بما هو ناقص على الفور، واجعله يرتاح بعد التأكيد على كفاية الطعام ولا أحد يزعجه حتى يصحو لوحده، واضح.

اكتفى بهز الرأس مشيرا إلى قيامه بالمطلوب، انصرفا آخذين الطريق الى السكن، أشار إليهما الباشا بالانصراف قائلا.

* بالغد لنا حديث ونرى ما نستطيع تكليفك به من عمل.

سار به (مبروك) إلى حيث السكن الذى اشار إليه، لم يتبادلا الحديث إ لا التحايا مرات عدة، دخلا إلى السكن، أصابته الدهشة، سكن شديد الفخامة مؤثث بشكل أقرب للقصور، كان جاهزا من كل شيء، فتح الثلا جة وجعل ينظر إلى محتواها طالبا منه أن يرى إن كان شيء ناقصا ليأتي به على الفور، نفى جدي حاجته لأي شيء آخر، ألقى (مبروك) الس لام عليه وغادر دون انتظار لرد السلام، بعض لقيمات تناولها مما وجده أمامه، ، لم يهتم بالتأمل بأصناف الطعام المليء بها الثلاجة، بعدها ألقى بنفسه على الفراش، كان بحاجة ماسة للنوم، ذهب بسبات عميق دون أي قلق كان يرافقه دوما، صحا بعد ساعات طويلة من النوم العميق لا يعرف كم كانت، جلس على الفراش بحالة من الشرود، يفكر بحياته

Edit with WPS Office

الجديدة التي تبدأ بعد وقت قصير، نهض وتوضأ وقام بصلاة ما فاته من صلوات، أخذ يدعو بأن تكون أيامه القادمة لها كم كبير من الهدوء و الطمأنينة والسعادة، تناول على السريع لقيمات بسيطة وأعد كوبا من الشاي، وخرج بعدها للتجول بالحديقة الكبيرة التي تلتف حول القصر من كل جهاته، كان مذهولا بما يرى، استيقظ من دهشته على صوت (مبروك) ينادي عليه ليتناول الطعام معه، لبى دعوته رغم أنه تناول الطعام حرصا على توثيق العلاقة مع العاملين بالقصر، أثناء الطعام تجاذبا أطراف الحديث، كل منهم كان يتكلم مع الآخر وكأنهم يعرفون بعضا من سنوات، حكى له (محروس) حكايته وكيف التقى بالباشا، رد عليه (مبروك).

* أنت محظوظ وواضح أن أمك كانت تدعو لك دوما، محظوظ لأنك التقيت بالباشا، لله تدبير الأمور، الباشا (حازم) الأوسط بين إخوته، الوحيد من بين إخوته الذي أصر على البقاء هنا ولا يغادر، كل إخوته رجال ونساء هاجروا، الباشا الكبير (محسن باشا) اللّٰه يرحمه توفى من حوالي ثلاث سنوات، وبعد وفاته اتضح أنه وزع ممتلكاته بالعدل والشرع على كل من أولاده بعقود موثقة، كان رجلا خيرا فوق الوصف، خصص أموالا شهرية لبعض الأهالي، كل ما تراه هنا من جمعية زراعية ووحدة صحية ومدارس من خيره, ومن أراضيه, وبأمواله، بل إن له ممتلكات كبيرة بطنطا كما سمعت، قبل وفاته بأسابيع طلب ابنه (حازم)، وطلب منه أن يذهب ويأتي بموظفين من الشهر العقاري، لم يترك له فرصه للتساؤل، لم يأخذ وقتا طويلا وعاد ومعه اثنين من الموظفين، جلسا أمام الباشا الكبير الذي كان قد نهض وجلس على أحد المقاعد حتى لا يظنا أنه لا يتمتع بالوعي، أشار إليهم بالجلوس، وأجلس ابنه قريبا منه، تناول حقيبة صغيرة فتحها تناول من داخلها أوراقا ، مد يده الى الموظفين بها، أخذا يتصفحانها دون أن يفهما المطلوب، تكلم الباشا بصوت عفي، طالبا منهما تخصيص الممتلكات المدونة بالأوراق موقف خيري يقام بها مسجد كبير ومدرسة كبيرة ومدرسة لتعليم الخط العربي ودارا لتحفيظ القران، ومستشفى كبير ، وأن يتم الصرف على كل هذا

Edit with WPS Office

من ريع ما تم تخصيصه، الابن نهض مسرعا آخذا رأس أبيه بين يديه يقبله، وهو يردد.

* بارك الله فيك يا أبى لقد خلدت اسم العائلة للأبد.

وبعدها التقت دموعهما، أجزل العطاء للموظفين وطالبهم بالانتهاء من هذا بأقرب وقت ، وكان قد وقع كل الأوراق، باقي الإخوة تركوا له إدارة الأملاك على أن يمدهم بما يخصهم من إيراد بشكل دائم، ولكنه استطاع خلال الثلاث سنوات شراء بعضا من أنصبة اخوته، وأظن أنه سيفعل هذا مع البقية، ثم تدرج بالحديث إلى أمور كثيرة تخصه هو وتخص بعض العاملين بالقصر، ووصل الأمر به أنه حكى عن أسرته، أبيه وأمه وإخوته وزوجته وكيف عرفها وطبيعتها وأولاده ، لم يترك شاردة أو واردة إلا وحكى عنها، تم تعريفه بحبسه واحدة بالكثير من أمور السرايا وقاطنيها، كانت طبيعته أنه كثير الثرثرة بلا توقف. حتى أن أحد العاملين بالقصر مر بهم، توقف قريبا منهم صائحا بصوت عال مصحوب بالضحكات.

* ربنا معك يا بلدينا اذاعتنا لا تفصل وشحن بطارياتها لا يفرغ.

قالها وهرول مبتعدا قبل أن تصيبه حصى صغيرة سيقذفه بها لأنه معتاد على هذا وأصبح طقسا يوميا لديه، أكمل الحديث.

* أنت فعلا محظوظ لأن الباشا رجل بسيط متواضع ورث كل الصفات الحلوة من الباشا الكبير الله يرحمه، يحب كل الناس، أما إخوته فهم من طينة ثانية التعالي والكبر والغرور ومعاملة الناس بكل فظاظة، والحمد لله أنهم دوما بالخارج, مجرد أيام كل سنه أو أكثر تمر علينا ثقيلة ولكن بالنهاية يغادرون مشيعين لكل ما بالصدور من غل تجاههم، تعرف إن الباشا رغم ثرائه لا يحب أن يكون له سائق خصوصي، حتى من يعمل بـ السراية يعاملهم على أنهم من أهله، ربنا يمد بعمره ويبارك لنا به، نفس الحال بالنسبة للست هانم (افتخار هانم), نفس الطباع الطيبة التي بلا حدود لم يعل صوتها يوما على أحد، العقاب عندها هو أن لا تتحدث مع

Edit with WPS Office

من فعل أي خطأ ليومين أو ثلاثة حسب حجم الخطأ، له ثلاثة أولاد تقول مثل القمر وأحلى طباعهم من طباعه رغم صغرهم، ولدان وبنت أعمارهم بين الثامنة والثانية من العمر، (زياد ، ورأفت وجميلة)، على فكرة الباشا عمره بعد الثلاثين بسنوات قليلة، وهو حاصل على شهادة الحقانية التي كانت الهدف الأول لأبناء الباشوات والعائلات الكبيرة بحثا عن نظارة إحدى النظارات بالحكومة، ولكنه رفض أى عمل، من صغره ومن يومه عاشق للقرية والزرع والناس، لم نره يوما عابسا، عكس كل إخوته الذين لا نعرف من أين ورثوا هذا التكبر، قيل إنه ميراث عن جدتهم لأمهم التركية، الحمد لله أنهم لا يأتون إلا أياما معدودة بالسنة للحصول على نصيبهم من ريع الأرض التي تتقلص مساحتها كل عام ، الباشا يشتري منهم ويسجل باسم أولاده الصغار، ألم أقل لك إنك محظوظ ووالديك كانا يدعوان لك وأظن أنهما ما زالا على هذا الدعاء، تعرف يا (محروس) قلبي ارتاح لك، ربنا يديم الود.

لم يتركه إلا وكان وقد استوفى تعريف كل من بالقصر، من أصحابه ومن العاملين به، انتبها على صوت الباشا الهاديء ينادي عليهما، أسرعا عدوا حتى وقفا أمامه، لم ينبس أحدهما بأي كلمه، خاطب (مبروك).

* أظنك كالعادة جلبت له كل صداع الدنيا، ولكن رغم صداعك إلا أن به أمرا جميلا، أنك تعرف أي أحد كل التفاصيل فلا يحتاج وقتا ليفهم المطلوب منه.

ثم التفت إلى (محروس) قائلا.

* ومؤكد ودون سؤال أنت تفهم جيدا بشئون الزراعة وما يتعلق بها.

اكتفى هو بهز رأسه علامة الإيجاب والتأكيد.

نهض الباشا، وسار مشيرا له بالسير معه، نزلا درج السلم وأخذا طريقا يوصلهما إلى حيث توجد (كارتة) جاهزة بكل ما يلزم، صعد الباشا وأمره بالصعود والجلوس مجاورا له، قبل أن تنطلق أتى من بعيد مهرولا رجل، تكلم وحديثه يخرج متقطع من جراء هرولته، تمام بصوت أشبه بالرجاء

Edit with WPS Office

أن يقود هو (الكارتة)، رفع الباشا يده.

* هذه المرة أنا من يقود، اذهب أنت إلى (مبروك) ساعده فيما يطلبه منك.

استدار الرجل عائدا وبذات الهرولة دون أن يتكلم بلفظ واحد، ألح الجد على الباشا أن يجعله يقود (الكارتة) فهو له خبرة بهذا، والده يملك إحداها، كان رد الباشا.

* اليوم علينا أن نعرفك الأرض التي تشرف عليها، وأتمنى أن يكون نتاج إشرافك جيدا بأقرب وقت رغم أني أشتم رائحة هذا، وربما بالغد والله وحده من يعلم تكون أنت قائدها على الدوام.

كان يسير على مهل لا يسرع حتى لا يثير التراب على من يمر بهم، يلقى بالتحايا الباسمة والضاحكة على الجميع، ينادي كلا باسمه، كان أحيانا يتوقف وينادي أحدا بعينه، يسأله عن زوجته أو أولاده أو أبيه أو أمه ويطلب منه المرور عليه بنهاية اليوم، جدي كانت تزداد مساحة عينيه اتساعا، ويفتح فمه على كامل محيطه دهشة من هذا الرجل الذى هو سليل أسرة ذات مكانة، ورغم هذا يشعرك أنه واحد من هؤلاء لا فرق بينه وبينهم، كان الباشا شديد النباهة حينما لمح كل هذا على وجه الجد، مد يده وضغط على ساعده موجها نظرة شديدة إليه.

* يا (محروس) ضع أمام عينيك وعقلك وتفكيرك أمرا هو الأهم بالحياة ، أن تقترب من الناس، من الجميع وأن تشعرهم أنك شريك لهم بكل أمورهم، ساعتها سوف تجنى أهم ثروة بالحياة وهى محبتهم وخوفهم عليك، والإحساس بك، وأظنك تعرف هذا، فقط أذكرك به.

حسبما سمعت من أبي فأنا لم أعاصر جدي وأعايشه سوى سنوات قصيرة، كان الجد يزداد دهشة وهو يشاهد بأم عينيه مدى تواضع الباشا وتقاربه مع الجميع، مروا على كل أراضيه، كان يتحاور مع المزارعين في كل زوايا الفلاحة بما ينم عن ثقافة عالية، وأيضا عرفهم بأن الجد هو من يتولى الإشراف عليهم، للحقيقة وجد ترحيبا من الجميع، بساطة

Edit with WPS Office

الباشا جعلته يعقد مقارنة بينه وبين ما عرفه من باشوات قريته وما جاورها من قرى، كان عنوانهم الأوحد هو العجرفة والتعامل بفظاظة مع من يعمل لديهم، إصرارهم على وضع حواجز كثيرة بينهم وبين أهل القرى بل والمحيط البشري المحيط به إلا مع من يتشابه معهم. السير مختالين يسير على البعد منهم بعض الأتباع يحملون على أكتافهم البارودة، والباشا بيده كرباج بين الحين والآخر يصفع به الهواء، وليس مهما إن طالت أطرافه أحد الأتباع الذى عليه أن يكتم ألمه مهما كان قاسيا، حمد الله بداخله أن جعله بتعرف بهذا الرجل النادر وجوده، انتهت جولتهم بالأراضي، وأخذ الباشا طريق الرجوع، طلب منه أن يتركه قليلا، إرتسمت علامات الدهشة على وجه الباشا، لم يجعلها طويلا (محروس) تستمر طويلا.

* فقط أريد أن أتعرف بالأرض جيداً.

عادت الدهشة بشكل أكبر على قسمات وجه الباشا، أكمل الحديث.

* لكل أرض طبيعتها ولغتها، هكذا علمنا أبي، قال لي كثيرا منذ أن بدأت الوعي، أن الأرض مثل البشر لكل منها طبيعتها ولغتها، هي تشعر وتحس مثل أي إنسان، وتحتاج لغذاء يناسبها، وماء يرويها بالكيفية التي تريدها، وأدوية تعالج أسقامها، ونوع من المزروعات تناسب تربتها، لكل تربه ما يناسبها، ولكننا للأسف جبلنا على التعامل معها على نحو واحد، أن نزرع ونرمي البذور حتى إن كانت غير ملائمة لها، وبعدها نلقى باللوم على الحظ وعدم البركة، علينا أن نتفحصها جيدا حتى نتوصل لفهمها وإن استطعنا فهم كل هذا، تأكد بعدها أنها تؤتي ثمارها بالشكل الذي نرجوه ونتمناه بل أكثر من التوقع والتمنى، ساعات وأعود لا تقلق يا باشا سوف أعرف طريق العودة، وبإمكان أحد الرجال أن يصل بي إلى السرايا.

* بصدق أنت بك أمور لم أعهدها بأحد من قبل، لست وطنياً فحسب بل يضاف إليك مسمى آخر جديد بك هو الفلاح الفصيح، سوف أنتظر لأرى ما تفعله، حركت بي نوازع الشغف.

Edit with WPS Office

جلس الجد القرفصاء رافعاً ملبسه حتى أعلى ساقيه حتى بانت ساقاه المليئتان فتوة وشبابا، أخذ يتناول بعض تربة الأرض، يقربها من أنفه ويشمها، يقربها من أذنيه كأنه يحدثها ويسمع حديثها، يتنقل من مكان إلى مكان، ومن حوض إلى حوض، طال الأمر، والباشا واقف يتابع بناظريه ما يحدث، لساعات طوال وهو يتنقل بين المساحات الشاسعة التي لا يأتي البصر على نهايتها، للمرة الأولى بحياة الباشا أن يتسع صدره للوقت ولا ينبس بكلمة، يشاهد وترتسم الدهشة والتساؤلات على ملامحه بين الظهور القوى والخفوت، نهض أخيراً معلنا انتهاء جولته التفتيشية عن أحوال الأرض وأسرع إلى مكان وجود الباشا واقفا بين يديه، حانيا رأسه متحدثا بصوت شديد الخفوت.

* سامحني يا باشا جعلتك تنتظر كثيرا، ولكن أعدك أن ترى ثمرة هذا الإ نتظار خلال شهور، لأن علينا الانتظار حتى تكتمل دورة المحاصيل المنزرعة حاليا، سأجلس إليكم حسب إذنكم وأحدثكم عن تصوري لأمور الزراعة، وبأمر الله تجد منكم قبولا.

لم يعقب الباشا على حديثه بأي كلمه، اكتفى بنظرة تحمل فحواها الدهشة والإعجاب في آن واحد، وجد تساؤلات كثيرة تعتلي وجه الباشا، فأراد أن لا يجعله رهينا لها طويلا.

* يا باشا اطمئن كل شيء ستراه عن قريب بما يسر نفسك وخاطرك، فقط كما قلت ننتظر إنتهاء زمن هذه المحاصيل وبعدها، سوف أضع أمامك تخيلا للكثير من أمور زراعة هذه الأراضي، لكل تربة نوع مناسب لها تزرع به ويرحبان ببعضهما، لا تندهش الأرض مثل كل الكائنات تستشعر بكل شيء، تتآلف مع البعض، وتتنافر من البعض، أنا أشبه علاقة الأرض بمن يزرعها بالزواج، إن وفق الرجل أو الأنثى في اختيار الشريك كان النتاج جيدا والعكس، لكل كائن على أرض الله ما يريحه وما يزعجه.

مد الباشا يده وأمسك بمعصمه بقوة بعض الشيء، ووجه إليه نظرة قوية لها معان كثيرة.

Edit with WPS Office

* يبدو أن الله أرسل إلي وطنيا وحكيما ويجيد التعامل مع الحياة، بأمر الله أتوسم الخير كل الخير على يديك ولك مطلق الحرية في أن تفعل ما تريد دون الرجوع إلي ثقة مني فيك، هيا نعود لتناول الغذاء، ثم تستريح ولنا أحاديث كثيرة لقد فتح قلبي وعقلي لك، سبحان الله بوقت لا يحسب ولكنها إرادة الله.

* القلوب تنادي بعضها وصدقني يا باشا القلوب تنادي من يتوافق معها، الطيبة للطيبة، والخبيثة للخبيثة، ألم أقل أن لكل شيء من يتوافق معه وما يتنافر معه ، كل شيء وضعه ربك بحساب دقيق.

الباشا كان يكتف بالنظر إليه ووجهه مع عينيه ينطقان ببريق السعادة، كان جدي يصحو مع تباشير الصباح الأولى، يسرع بالصلاة مع الجميع بـ المسجد الصغير الملحق بالسرايا من الخارج مع بعض أبناء القرية، بعدها يأخذ طريقه نحو الحقول، يجلس هنا وهناك يتناول بعض الطمي من كل مكان يفركه بين يديه يتشممه، ينثره فى الهواء، يمعن النظر ليرى توجهات الطريق التي توجه إليه بعضا مما نثره وإلى أين تحط يمينا أم يسارا أو بزوايا أخرى، بالأخير يهز رأسه راضيا عن النتائج التي وصل إليها، عند بداية موسم الزراعة الجديد يحكم فكره ما توصل إليه من نتائج، ترقب هو والباشا وكل العاملين بالأراضي النتائج، بعضهم كان قد أبدى اعتراضه، والبعض أبدى تذمرا مكتوما، والقليل رحب نوعا من الحيادية، الكل لم يظهر ما يبطن حتى لا ينال سخط الباشا، يعود كل يوم يمر على المزروعات، يتابع خطوات نموها، أساريره كانت تزداد انفراجا يوما عن الآخر، الباشا كان يصاحبه، يتأمل ويبتسم ابتسامته القصيرة التي لا تلق بكامل أوراق الحقيقة للعلانية، الباشا ممن لا يبدون انفعالا حول أي شأن إلا باكتمال المشهد كاملا، كان يشاهد مراحل نمو المزروعات وبداخله يقين أن ما يراه مغاير تماما لأي شيء سابق، ولكن الأهم لديه هو الناتج النهائي، فهو القول الفصل وآليات لكل شيء، الجد كان على مسيرته اليومية، بعد صلاة الفجر يتسلل ذاهبا إلى الحقول، يتجول بينها، يداعب أوراق المزروعات ويداعب ما بدأ يعلن عن ظهور الثمار، كم حكى لي أبي عن هذه اللحظة التي تم نضج المحاصيل وحان

Edit with WPS Office

موعد حصادها، الجميع فوجيء، الباشا وكل من يعمل بالسرايا الذين استدعاهم الباشا لمشاهدة الحصاد للمرة الأولى بعمرهم، وأيضا المزراعين ، سواء من كان يعمل بأراض الباشا وهم أغلبية، أو ممن يمتلكون مساحات قليلة أو ممن يعدوا من متوسطي الحال، وكأن الأمر تحول إلى عيد للحصاد.

، الباشا كان يقف بين الجميع واثقا تماما من نجاح رجله فيما سعى إليه، وكان الناتج فوق كل تخيل، يكاد يتضاعف وأحيانا يتجاوز التضاعف، الكل كان قمة بالدهشة التي عبروا عنها تهليلا وتصفيقا، ولعل هذا اليوم دعاه الى التفكير بيوم للحصاد يحتفل به، الباشا لا إراديا، اندفع محتضنا جدي، ويقبله بحب صادق، بعد انتهاء أيام الحصاد، جلس الباشا وعلى مقربة منه جدي، بعد أحاديث متشعبة وزوايا كثيرة، فاجأ الباشا الجد.

* يا (محروس) أنت أثبت لنا أنك فعلا تفكر بما يعود بالخير علينا، ونحن من ناحيتنا نقدر هذا، لذا قررت أن يكون لك بيت مستقل قريبا من السراية، ثم أمر آخر أفكر فيه منذ فترة، سوف أسعى لتزويجك من إحدى بنات الأسر الأصيلة من بلدات مجاورة لنا، فأنت أشبه بالعازب، ويجب أن تكون لك حياة مستقرة، إلا إن كنت ترغب بأن تأتى بزوجتك وابنك ليكونوا بجوارك، رغم أنك قلت مراراً أن أباك رافض تماماً هذا الموضوع، ودوما يصرخ بوجهك، هل تريد أن أفقد حتى رائحتك، زوجتك وابنك أراك فيهم فلا تفكر بهذا مطلقا مادمت أعيش على وجه ا لأرض.

هز الجد رأسه مؤمناً على حديثه، ولم ينتظر الباشا طويلا، في صباح اليوم التالي، ركب السيارة يجاوره الجد، لم يجرؤ الجد على سؤاله إلى أين؟ طوال الوقت الذي قارب النصف ساعة لم ينبس أحدهما بكلمة، اكتفيا بتبادل النظرات، أخيراً توقفت السيارة أمام منزل مغاير لمعظم منازل القرية التي مرا بها، على الباب يجلس شابان على أريكة، بمجرد وقوف السيارة انتصبا قائمين، وقف كل منهما على أحد جانبى الباب، بل

Edit with WPS Office

ورفعت أيديهم بالتحية وفتحا الباب على سعته، لفت نظر جدي مقدمة الباب بأعلاه تمثالان لصقرين على جانبيه ، وعندما لمح الباشا الدهشة يمتلىء بها وجه الجد، علت شفتيه ابتسامة صغيرة ولكزه خفيفا بأطراف الأصابع، قادهم الرجال إلى حجرة متسعة للغاية بها العديد من الأرائك الوثيرة والمفروشات، بمجرد أن دخلا إلى مقدمة الحجرة اندفع رجل عملاق الطول والبنية، فاتحا ذراعيه على سعتيهما، تراجعت أكمامه وبدت ذراعاه عاريتين، ظهر عليهما رسم الوشم صقر على كل ذراع فزادت دهشة الجد، عاود الباشا لكز جدي بشيء من العنف هذه المرة، هرول الرجل زاعقا بصوت عال للغاية.

* (حازم باشا البدوي) سليل الأصول والكرم والنبلاء، يا أهلا يا أهلا شرفتنا.

وأكمل الطريق حتى وصل إلى الباشا وعانقه بقوة وبادله الباشا نفس العناق، إستمر العناق والتقبيل على الكتفين وقتا سمح للجد بأن يجول ببصره بالحجرة الفسيحة، لمح خلف الكرسي المرتفع قليلا عن كل ما يحيط به من كراسي صورة لصقر، ولكنه هذه المرة كتم دهشته داخله، وانتظر أن تتضح الأمور، أشار الرجل إلى الباشا بالجلوس مجاورا له، وأشار إليه أن يجلس مشيرا إلى أحد المقاعد القريبة، بعد وقت طال من الربتات المتبادلة بينهما تكلم الباشا.

* يا حاج (جعفر) هذا (محروس) الذي حدثتك عنه، رجل وفي أمين مخلص، لا أبالغ إن قلت إنه منذ تعارفنا والخير يجرى بركابه، علاوة على أنه شهم وجريء بالحق ووطنى فوق تخيلك، أرجو أن تكون قد فكرت بما عرضته عليكم من أيام.

* يا باشا يا إبن الأصول أنت تأمر ونحن ننفذ، معرفتنا متأصلة من الجدود، طلبك مجاب بأمر الله، يا باشا أنت قلت أن له زوجة وابن ببلدته (محلة نصر بالبحيرة) كيف يكون عادلا بينهما وواحدة على مسافات بعيدة والأخرى إن أمر الله ستكون معه على الدوام، أم أنه سيأتي بزوجته أيضا.

Edit with WPS Office

* يا حاج الزوجة الأولى يرفض أبوه رفضاً باتاً أن تغادر القرية مرددا أنه يشتم رائحة ابنه فيها وفي ولده منها، وهو لا يذهب إلى قريته إلا على فترات متباعدة ويذهب تحت جنح الليل ويعود مثلما ذهب، والأمور تسير هكذا منذ أكثر من عام فلا قلق من هذه الناحية، ثم أنا أضمنه وأرشحه بقوة لمصاهرتكم.

* يا باشا أنت كلمتك أمر، الرجل الأصيل لا يأت إلا بأصيل مثله، ونحن نعرف أنك أتيتنا بهدية ونحن سنرد الهدية بهدية تناسب مقامكم، (جوهرة) ابنة اخي (زيدان) ترملت بعد شهور من زواجها، زوجها مات بحادث دهس أثناء ذهابه إلى طنطا لبعض احتياجاتهم وتركها حاملا بـ الشهور الأولى، أنجبت بنتا عمرها الآن ثلاث سنوات، وهى لم تتجاوز العشرين الا بسنوات قليلة. أظن أنها قد تكون مناسبة إن وافق (محروس).

* كيف لا يوافق وهو بحضرة الحاج (جعفر صقر) كبير الناحية و النواحي كلها، ولا أبالغ إن قلت المديرية كلها، ما طلباتكم ونحن تحت ا لأمر.

الجد كان يجلس قمة الدهشة فاغرا فاه، بين الفرح وبين المفاجأة وسرعتها، واضح انها إبنة عائلة ذات شأن وهذا ما أفرحه، ولكن هرولة ا لأمر جعله يعيش المفاجأة بشكل كامل، أفاق من شروده على صوت الحاج.

* اي طلبات تتحدث عنها يا باشا، كلنا رهن أمرك، اعتبرها ببيته دون أي طلبات سوى أن يراعى اللّه بها، وببنتها وأن يكون الأب والأخ قبل الزوج ، ولا شيء آخر.

* هذا ما أضمنه لكم.

ومد يده وتناول يد الحاج (جعفر صقر) وتصافحا بحرارة، ضحك الحاج ضحكة قصيرة وأشار بيده إلى الجد قائلا.

Edit with WPS Office

* نحن نسينا رأي الرجل وتركنا لأنفسنا أن نتكلم ونتفق باسمه وهذا لا يصح، ما رأيك يا (محروس) أليس هذا اسمك؟ تكلم وأسمعنا رأيك بلا مجاملة للباشا أو لي، فهي حياتك وأنت من تتحمل نتائجها، تكلم يا بني.

تلعثم الجد للحظات ولكنه على الفور استجمع شتات نفسه، وعدل من جلسته، ووجه بصره إليهما متنقلا بين الوجوه وبالنهاية تكلم بصوت هادئ واضح ومفهوم.

* أنتم غمرتموني بأفضالكم، ومؤكد أنتما لا تسعيان إلا لخير لي، وأنا أوافق على ما إتفقتم دون أي تعديل أو إضافات، أنتم شرف لي.

بعدها نهض الباشا ليعانقه وتابعه الحاج، اتفقا على أن يأتي ليكتب عليها بعد أسبوع، لم يطلب رؤيتها ربما خجل من طلبه وربما ثقة منه بمن اختارها الرجل الذى من الواضح مدى علاقته الوثيقة بالباشا، نهض الباشا طالبا الإنصاف، ألح الحاجا كثيرا لتناول الغذاء معه ولكن الباشا اعتذر ووعده بهذا يوم يأتون لكتب الكتاب ومصاحبة العروس، وطلب منه أن يأتي بأقرب وقت للاطمئنان على السكن المعد لها وأثاثه، رفع الحاج يده قائلا.

* يا باشا نحن لسنا أغراب عن بعض ، نحن علاقة من الجذور من أيام جدي وجدك، ليس بيننا مصالح، ما بيننا هو الود والاحترام ربنا يديمها علينا.

شيعوا الحاج ورجاله الذين يحملون البنادق على أكتافهم حتى السيارة، لفهم للصمت حينا ليس بالقليل، الجد يفكر بهذه الخطوات المتسارعة، و الباشا تعلو وجهه أمارات السعادة، بل إنه كان ينقر بأصابعه على مقود السيارة نقرات متناغمة، تكلم الباشا.

* مؤكد عرفت سبب رسمات الصقر، العائلة اسمها صقر، ولكي تعرف أكثر عندهم طقس معين وثابت منذ عصور لا أعرف ولا هم مداها، هم توارثوها من السابقين، عندما يبلغ الولد عمر السادسة يوشم على ذراعيه وشم الصقر، ولا أعرف إن كانوا يفعلون هذا مع نسائهن وفتياتهن أم لا

Edit with WPS Office

ثم تعرف انت عندما تزف إلى عروسك. ما رأيك فيما رأيت وسمعت؟

* يا باشا أنت لا تعرف سوى الكرام، من الواضح أنها عائلة لها حيثياتها ولها مقامها، فقط أنا مندهش من هذه السرعة بالأمور، ولا أقول هذا اعتراضا لا سمح الله، ولكن الخيرة فيما يقرره الله لنا، فقط لي مطلبين إن سمحت، الأول أن أذهب يوما لوالدي ليحضر هذا الزواج، والثاني هو أن تسمح لي بزيارتهم منفردا لإيجاد نوع من الأريحية بيننا.

* بالنسبة لطلبك الأول ونظرا لضيق الوقت سوف أرسل سيارة تأتي بأبيك ومن يريد أن يصاحبه، والثاني أوافقك عليه ولك أن تذهب متى شئت.

كان من يرى الجد والباشا لا يصدق أنه باشا وأن هذا مجرد واحد ممن يعملون لديه فقد توثقت علاقتهما بشكل كبير وسريع، كان الباشا كثيرا ما يستشيره بالكثير من الأمور دون أن يضع أي فواصل بينهما، كانا يتسامران سويا، يحكي بعض المواقف التي لا تنسى على مدار أعمارهما، كانت هناك جلسات سمر موسعة تعقد نهاية كل أسبوع ، يجلس الباشا وحوله بعض الأهالي وضيوفه من بلدان أخرى، يطلب من الجد أن يحكي عن كيفيه قنصه للإنجليز، رغم أنه سمعها عشرات المرات، يحكى والكل ينصت يتخلل حكيه بعض من التهليل والتصفيق، وكأنه يحكي حكايات عنترة العبسي وأبو زيد الهلالي وحمزة العرب، وحكايات أخرى كثيرة لها الكثير من الخيال وقليل من الحقيقة التي سمعها أثناء جلساته بقريته مع الشباب الذين كانوا يكبرونه عمرا. باليوم التالي طلب الإذن بـ الذهاب إلى قرية من ستكون زوجته، أراد الباشا أن يذهب بالسيارة وتنتظره للعودة، رفض قائلا.

* أريد أن أعرف طريق الذهاب وحدي فإن تم الأمر مؤكد هناك زيارات كثيرة. اكتفى الباشا بالابتسام طالبا منه أن يمر على المخازن يأخذ منها ما يشاء هدايا لأهل العروس فلا يجب أن يذهب أو يدخل بيتهم دون هدايا تليق به وبهم، شكر الباشا طالبا منه أن يمنحه (كارتة) ليذهب بها

Edit with WPS Office

ويعود، المسافة بين القريتين تقترب من الساعة (بالكارته)، وصل أمام البيت الذي يعلوه مجسم الصقور، دون أن يسأل أحدا، الجد كان صاحب ذاكرة لا تنسى، الرجلان الواقفان أمام الباب والمعلقة بنادقهم على أكتافهما نهضا متسائلين عما يريد، لم يتعرفا عليه، أخبرهم بما يريد، دخل أحدهم إلى الداخل وعاود بعد لحظات قليلة مشيرا له بالدخول، الرجل يتوسط الحجرة وعلى جانبيه يقف بعض الرجال تعلو أكتافهم بنادق متشابهة الصنع، ويجلس بعض الرجال والشباب أمامه، عندما رآه الرجل رحب به بشده، وأشار إلى ثلاثة من الشباب متفاوتة أعمارهم، سارعوا بالوقوف أمام الحاج ناظرين إلى أسفل، خاطبهم.

* هذا (محروس الصعيدي) عريس أختكم (جوهرة) بأمر اللّه، هيا سلموا عليه، ووجه الحديث للجد .

* هؤلاء إخوة عروسك، (على وإبراهيم ومتولى), وبعض الوقت يكون أخي (زيدان) حاضرا، كويس حضورك للتعرف على أسرة عروسك.

أقبل عليه (إبراهيم ومتولي) صافحاه بحرارة وتبادلا القبلات، وجلسا على مقربة منه، أما (علي) فقد مد يده بلا حراره وبادله النظرات التى توحى بعدم ترحابه، ولكنه قال أهلا مقتضبه وبخفوت وعاد إلى مكان جلوسه، وأخذ ينظر إليه شذرا بين الحين والآخر مما أصابه ببعض القلق، فيما بعد فهم سبب هذا التنافر والنظرات الشذرية، ظن أن أخته ستتزوج رجلا أقل مكانة منهم، ولكن عندما اتضحت الأمور كان أقرب أصهاره إليه ،دار الحديث بالعديد من الموضوعات، سئل عن أهله وعن بلده وعن سبب وجوده هنا، طال الحديث الذي قطعه وصول (زيدان صقر) والد العروس الذى رحب به كثيرا، وقال.

* أخي الحاج (جعفر) مادام وافق نحن موافقون لأننا نعرف أنه دوما له نظرة بالناس، تشرفنا بك وكيف لا نتشرف وأنت مع الناس الأفاضل، عائلة (البدوي) الناس الكبار وأصحاب السمعة العطرة.

طال الحديث بينهم لساعات وساعات وتناول الطعام والمشروبات سويا،

Edit with WPS Office

بعدها أخذ الإذن للمغادرة، أمر بعض رجالة لمصاحبته حتى يغادر زمام (الهياتم), ركب (الكارتة) وسار بجانبه اثنان من راكبي الخيل على اليمين وعلى اليسار حتى وصل إلى مشارف القرية ودعهم شاكرا لهم، كانت مساحات الثقة قد زادت داخله بعد هذه الجلسة الطويلة، ولكن نظرات (على) لم تريحه، ولكنه ترك الأمر للأيام مؤكد ستوضح كل شيء، استقبله الباشا ضاحكاً، كان يجلس بالفراندة الواسعة والتي بمقدمة السرايا بتناول فنجان من القهوة التي يصر على عملها بنفسه، قائلا أنا أدرى بما يطلبه مزاجي من القهوة، كان يرتشفها بهدوء تام وكأنه بحضرة حبيبته، طلب منه أن يقص عليه ما حدث بالتفصيل، وعندما ذكر (على) فوجئ بالباشا تعلو ضحكاتهم ويربت على ساقه بشكل به قوة بعض الشي.

* لا تشغل بالك، هذا الشاب دائم القلق لأهله، ولكن هم يعرفون كيف يلجمونه إن خرج عن المألوف لا تقلق من ناحيته، المهم سنرسل السيارة غدا إلى أبيك لتأتى به ومعه من يريد، كل شيء سيكون على ما يرام بمشيئة الله، نهض وأمسك بكفه وسار به إلى داخل السرايا، إلى حيث موضع التليفون، أشار إليه بالجلوس، رفع سماعة التليفون طلب محلات (الاسكندراني ومحمد أسعد) التاجرين الشهيرين بشارع الخان بطنطا، أملى عليهما ما يريده وبأقرب وقت، اتصل بكبرى محلات المفروشات بـ المحلة الكبرى، واتصل بمحل موبيليا شهير بدمياط محددا لهم المطلوب ، عادا إلى الفراندة الجد طوال الخطوات من داخل السرايا إلى الفراندة يردد الشكر مرارا والباشا يشير له بالسكوت، جلسا صامتين، لمح علا مات بعض الحزن على الباشا، هو يعرف سببه ولكنه أبدأ لم يحاول السؤال، الأولاد رغم أعمارهم الصغيرة أصرت الهانم على تعليمهم بالخارج منذ البداية هو كان رافضاً تماما للفكرة، خوفا من أن ينسوا طباع أهلهم وبيئتهم، ولكنه بالنهاية سلم الأمر لها، سافرت بهم إلى (باريس) والحقت الولدان بمدرسة داخلية، والطفلة تذهب بها إلى حضانة من كبريات الحضانات التي تعلم كل شيء من الألف إلى الياء، تعود كل شهرين لبضعة أيام وتعاود السفر، وقليلا ما كان يسافر فهو لا يعرف طعم الحياة

Edit with WPS Office

إلا وسط القرية وناسها البسطاء، ولكنه كان حريصا كل الحرص على قضائهم العطلات الصيفية كاملة بالقرية وأتى بمحفظ للقرآن الكريم يعلمهم ويحفظهم كتاب الله ، وكان يصطحبهم ويمشي بهم بحوارى وأزقة القرية يداعب الأطفال بتمرير كفه على شعرهم ويمنحهم بعض النقود، يجعلهم يصافحون كل من يصادفهم من أطفال القرية، يقف بهم لمشاهدة بعض ألعاب كرة القدم والأهل يقفون على الخطوط يصفقون ويهللون، يشاهدون ليلا من يلعب (الاستغماية) والاختفاء بين أكوام البرسيم الجاف، كان يحاول أن يقربهم من القرية وأهلها، هذا سبب و السبب الآخر إخوته الذين غادروا القرية منذ الصغر لا يعودون الا على فترات متباعدة وحالة عودتهم يثيرون الكثير من المشاكل، يتعالون على الجميع، يشيحون بوجوههم عن أهل القرية، يتبارون بفنون الخيل والعدو بها داخل أزقة وحواري القرية دون أي اعتبار لأحد، الناس تهرول وتدخل بيوتها خشية أن ينالهم أذى من هرولات الخيل أو من الغبار الذى يثار بشكل كبير، كم مرة جلس إليهم معنفا لهم رغم أنه ليس أكبرهم:

* تعاملوا مع الناس على أنهم من لحم ودم مثلنا، ليس ذنبهم أنهم خلقوا ليس من مستوانا، هؤلاء لو نالوا حظا من تعاملكم الجيد سوف يكونون حماة لكم حريصين عليكم، خذوا العظة من الجنازات، هي خير دليل على مدى حب ومكانة الراحلين، هناك من يسير بالجنازات بالمئات والألوف ومن بلاد متعددة، وهناك من يسير بجنازته عدد لا يذكر ، احذروا أن تصلوا بأن تكونوا غرباء حتى بمماتكم.

الغريب بأمر إخوته أنهم يجمعون بين تناقضات تثير الدهشة، التميز الكبير بأعمالهم في عالم التجارة، وأيضا بانغماسهم تماما في علاقات غير مشروعة مع نساء من شتى البلدان التي يذهبون إليها لإبرام صفقات، رغم أن كل منهم متزوج من سيدة من بيوتات عريقة ولها تمايز مجتمعي، ولكن ماذا تقول هكذا الرجل الشرقي لا يقنع بسيدة واحدة، كان كثيرا ما يمازحهم يبدو أنكم تريدون فتح فروع لكم من النسل بكل بلدان العالم، يكتفون بمبادلته الممازحة بابتسامات مقتضبة باردة مثل البلدان التي يعيشون ويتجولون بها.

Edit with WPS Office

كرر هذا مرات عديدة ولا حياة لمن تنادي، هم لا يأتون إلا للحصول على المال الذي يعرف أنهم يصبونه صبا في كل ألوان المتعة. وللأسف ورثوا هذا لأبنائهم الذين لا يطيقون التواجد بالقرية ولو لساعات، إقامتهم دائما بالقاهرة أو الإسكندرية، هم يتحملون وزر ما يزرعونه بأولادهم، الأبناء نبته ترتوي مما يسقيهم به الأهل من طباع وسلوكيات وطرق تعامل مع الأمور على تعدد مسمياتها،، في اليوم التالي وقبل أن تتوسط الشمس كبد السماء عادت السيارة بأبيه وأمه، تم استقبالهما بترحاب حار من الباشا، الأب رغم أنها المرة الأولى التي يلتقى فيها بالباشا إلا أن حديثهما المتشعب أشعرهما كأنهما يعرفان بعضهما منذ سنوات، بعد واجب الضيافة طلب الباشا من السائق أن يصاحبهم إلى (الهياتم)، ليتعرفوا بأهل الزوجة الجديدة لولدهم، كانوا قد أتوا معهم بالكثير من خيرات زراعاتهم ومواشيهم، وصلوا أمام البيت الكبير لعائلة صقر وكأنهم كانوا على علم بقدومهم، وجدوا الشارع معدا نظيفا مفروشا بطبقة من الرمل الناعم شديد الاصفرار، حراس الأبواب نهضوا على الفور وفتحوا الباب على سعته، الحاج (جعفر) كان يقف في منتصف الغرفة فاتحا ذراعيه بالشكل الذي قوبل به هو والباشا، أشار إليهم بالجلوس على مقربة منه، كان أب الجد مقررا لأمر قبل جلسته، بادر بالحديث.

* طبعا لنا الشرف كل الشرف أن نصاهر عائلة عريقة مثلكم، ولكن يا حاج دعني أوضح أمرا، أولا نحن الحمد لله أيضا عائلة لها مكانتها ولولا الظروف التي ربما أخبركم بها الباشا ما كنا تركنا (محروس) يغادرنا مطلقا، ولكن كما يقولون للضرورة أحكام، والحمد لله أن كان وجوده مع الباشا، هذا الرجل الذي سيرته المحمودة تجوب البلاد كلها شرقا وغربا، هذا للإيضاح.

* يا حاج (محمد) نحن نتصاهر مع رجال وأنتم أسياد الرجال، لا يهمنا أي أمور أخرى، ويكفينا أن ولدكم رجل يحب بلده ومخلص بحياته ويعرف الله.

أخذهم الحديث طويلا وأصر الحاج على قضاء الليلة لديه وان كان

Edit with WPS Office

(محروس) يريد أن يكون معهم أهلا وسهلا وإن لم يستطع فله الإذن وهو ماكان، عاد تاركا الأب والأم بضيافة الحاج الذى أكد أنه سيرافقهم حين عودتهم بالغد حتى القرية وبالمرة يجلس مع الباشا بعض الوقت، ا لأيام تهرول وأتى موعد حفل الزفاف الذى كان الباشا قد أعد له دون أن يخبره بشيء عنه، أصر أن تحضر العروس بهودج مثل الزمن الماضي ومثل قطر الندى يحيط بهودجها بعض الجمال المزينة والتي يركبها شباب العائلة وتسير بركابهم فرق غنائية تغني أغاني الفرح، كل فرقة تسلم لفرقة أخرى بمدخل قرية أخرى، حتى تصل إلى بيت العريس، هذا أخذ منهم ساعات للمسير، وعند الوصول إلى القرية كان هناك احتفال آخر، سرادق كبير وعازفو المزمار وراقصات الشمعدانات، وطهاة يقومون بشواء الخراف والماعز وما يلزم من طعام وشراب، استمر السهر حتى ساعات الفجر الأولى، دخل الحجرة التي بها عروسه، للم يكن قد شاهدها على الإطلاق، وجدها جالسة بحجرة النوم على أحد أطراف الفراش مطرقة الرأس إلى أسفل، اقترب منها برفق تام، بعد وقت رفعت رأسها تنظر إليه، ندا عنه آهه فلقد فوجيء بجمال لم يعهده من قبل، أخذ يفتح عينيه ويغلقهما مرات غير مصدق أن هناك مثل هذا الجمال على ا لأرض، مد يده إليها، طاوعته سار بها طالبا منها الوضوء للصلاة شكرا لله, ودعاء بأن يكتب لهما السعادة والبركة، عاودت الدخول إلى الحجرة التي قام هو بإغلاقها حتى لا تكون بحرج، توضأ هو أيضا، صلى وهى خلفه وبعدها جلسا للدعاء، هو يقول وهى تردد وراءه حتى تساقطت دموعهما سويا، ومن حلاوة عشرتها أصر إصرارا كبيرا بأن تأتي بإبنتها ليتولى تربيتها معها وتكون أمام أعينهما، أنجب الجد من زوجته الثانية ابنا وحيدا وهو والدى (جابر), ولم يعلم أحد عدد أبناؤة بقريته إلا بعد ذهابه مع الزوجة الجديدة وولده المولود وابنتها إلى قريته ليرى أبوه وأمه المولود الجديد، بهذا اليوم فقط علمت (جوهرة) أن له ثلاثة أبناء من الزوجة الأولى(محمد الذى سمى على اسم الجد الأكبر ، حسن، نبيلة)، الأيام تمضى وتزداد حلاوة أمام الجد، الباشا يزيده قربا وثقة، حتى أنه علمه كيفية قيادة السيارة، وأصبح سائقة، يصطحبه معه في

Edit with WPS Office

أموره كلها، حتى بحفلات الكبار كان مصاحبا له، كم من حفلات صاحبه لها بمسرح البلدية بطنطا، وقليلا صاحبه لمرة أو إثنتنان بأوبرا القاهرة، وبالسرايا العدد من الصور التى تؤكد هذا، حتى دموع الباشا التي كان يحجبها عن الجميع، كانت تتساقط أمام الجد، كان يبثه وجعه من بعد أولاده وتطبعهم رغم كل محاولاته ببعض طباع المجتمع الذي عاشوا به، كان كل منهم يجد سلوته مع الآخر، من رؤية الكبار ممن يأتون لزيارة الباشا بلا طلب أصبحوا يتعاملون مع الجد على أنه من أبناء السرايا، أقنع الباشا بأن يقيم مصانع تناسب البيئة التي بالقرية وأجوارها، لفتح أبواب رزق دائمة لهم، وأيضا إقامة مستوصف صحي آخر أوسع وأشمل لمعالجة أبناء القرية، وإقامة مدرسة أخرى ومعهد ديني آخر ومكاتب لتحفيظ القرآن، قائلا له.

*ما يخلد الإنسان هو سيرته العطرة وما يتركه من ميراث الخير.

لبى الباشا الفكرة، وفاجأ الجد يوما بأن إصطحبه إلى مدينة طنطا، وذهب به إلى أملاك له كان قد صاحبه إليها مرارا، كان يعرف أنها موقوفه من الباشا الكبير، فوجيء أن الباشا قد خصص جزءا آخر كبيرا بنى عليه مستشفى تحمل اسم (البدوي), ومسجدا كبيرا، ومدرسة للتعليم الأولى، ومدرسة لتعليم الخط العربي، كل هذه الإنشاءات يحوطها سور واحد، وأوقف بعض الأملاك للإنفاق على هذه الإنشاءات، تعانقا يومها عناقا حارا شهدت عليه الدموع المتبادلة، أبي ورث عن الجد حبه للزراعة وكأن الأمر جينات متوارثة، لم يكن عنده ميل للتعلم، صارت الحياة كما أرادها الله وكما تمناها الجد حتى كان اليوم الحزين، كان الجد جالسا تحت شجرة توت عملاقة، أمامه وعاء فخاري مشتعل النار دوما، كان يحب شرب الشاي بشكل كان يثير الدهشة، كان يتابع دوران الساقية ويلقي بنظره إلى العاملين بالأراضي، تعلو وجهه ابتسامة الرضا دوما، ينشرح صدره لسماع أغانى العاملين الذين كانوا يعشقونه، عند الظهيرة الكل يهرول إلى الأشجار المحيطة بمدار الساقية لتناول الطعام والراحة قليلا، وجدوا الجد ملقى على ظهره، ظنوا أنه نائم، إقترب أحدهم منه لإيقاظه فهم إعتادوا منه أن يشاركهم الطعام، فوجيء أنه لا

Edit with WPS Office

يستجيب لندائه مرات ومرات، ربت على جسده مرات ومرات لا حراك، الرجل وضع أذنه على صدره، لم يشعر بنبض، صرخ بصوت تردد صداه.

* عم (محروس) مات.

ارتفعت وتيرة العويل والصراخ واللطيم، هرول البعض منهم نحو السرايا لينبئوا الباشا، الباشا كان جالسا بالفراندة يتناول فنجان من القهوة، ولكنه كان شاردا بشكل كبير حتى أنه لم يشعر بالصراخ الآتي والنداءات التي تناديه، حتى وقفوا على أول درج الفراندة، تجرأ أحدهم وصاح بصوت به شيء من العلو.

* يا باشا يا باشا، البقية في حياتك، عم (محروس) تعيش أنت.

ما إن انتهى الرجل من آخر حرف مما قاله إلا وكان الباشا قد انتفض قائما متسمرا بموضعه، سأل الرجل.

* ماذا قلت؟

* عم (محروس) تعيش أنت.

الباشا أخذ طريقه للتهاوي، لحق به أحد الرجال، أجلسه على مقعد كبير، وأسرع لإحضار كوب من الماء، سقاه بعضا منه حتى انتبه، الباشا وجهه ينطق بالذهول التام، الخرس أمسك بلسانه، بعد وقت طال بعض الشيء تكلم بصوت متلعثم متقطع.

* سبحان الله فعلا الأرواح الشفافة تشعر بالغد، من أيام كنا جالسين لحالنا نتكلم بكل شيء, الأمس واليوم والغد متنقل بين الحكايات المفرحة والأخرى التي بها وجع، فجأة قطع الحديث ممسكا بيدي بقوة ووجه بصره إلي كأنه ينقش كلامه داخلى، قال لي.

* يا باشا إعذرني إن كان ما سأقوله قد يوجعك بعض الشيء، سامحني وعدني سوف أضع بين يديك وصيتي ولا أعلم متى تنفذ ولكني على يقين بحرصك على تنفيذها، أرجوك اسمعني دقائق دون مقاطعة، أنا عشت معك قرابة السبعة عشر عاما وأكثر وبكل الصدق لم أشعر بأي

Edit with WPS Office

لحظة أني غريب، كأني غادرت قريتي البعيدة هناك إلى قريتي التي كتبها القدر لي، لم تكن سيدا وأنا أجيرا لديك، كنت الأخ والصديق و الرفيق، أزلت بدماثتك كل الحواجز، وصيتي إن حان أجلى أن أدفن بمسقط رأسي، لم أكن غريبا هنا ولكن أود أن أعطي قريتي وأهلي بعضا من الوجود بينهم حتى لو كنت ميتاً، بعدها لم نشعر الا بعناق قوي يجمعنا والدموع الحارة والغزيرة تنساب من عيوننا دون توقف، الأرواح الشفيفة تقرأ قادم الأيام.

ثم هب ناهضا، أسرع للتليفون، طلب أحد أطباء القرية، لم يوضح له أي شيء.

* دكتور (سمير) إلحق بي عند زمام أرضي بالجهة الغربية، يبدو أن (محروس) مصاب بإغماءة، وخيل للناس أنه مات، لا تتأخر.

وأسرع مهرولا إلى السيارة، التي قادها بأقصى سرعة لم يعتادها أهل القرية على الإطلاق، كان يقود والدموع تغطى وجهه، وصدره يعلو ويهبط بحدة، عندما اقترب وجد القرية عن بكرة أبيها تحيط بالمكان، و الصراخ يعلو ويتصاعد من الكل، المشهد جعله يتوقف وكأن قدميه غاصتا بدوامة رمال متحركة، الدهشة علت وجهه عندما وجد جدتي (جوهرة) تضع رأس الجد على حجرها، ولا تنطق وكأنها أصيبت بـ الخرس، ولكن دموعها تتحدث نيابة عنها، وأبي صاحب الثلاثة عشر عاماً وقتها يتلفت يمنة ويسرة ولا يفهم شيئا سوى أنه يشعر أن الأب لم يعد موجودا ولن يحدثه أو يجلسه بجواره ويحكي له العديد من الحكايات وأحداث يومه، وجد أبي نفسه يرتمي على صدر أمه ورأسه يجاور رأس أبيه، ينظر للوجه الصامت بنظرات تستجديه أن ينهض من رقاده، وصل الطبيب الذي أجرى الكشف السريع والذي لم يأخذ وقتا طويلا نهض وهمس بصوت مخنوق.

* قضي الأمر، إنا لله وإنا إليه راجعون.

الكل رجال ونساء وشباب وصغار علا صراخهم، الرجل كان محبوبا من

Edit with WPS Office

الجميع لم يكن على خلاف مع أحد، بل يشهدون أنه كان عندما يشعر بأنه ربما أخطأ بشيء يسرع ويطرق باب من تخيل أنه أخطأ بحقه، يعانقه بشده ويربت على كتفه مرات وينصرف دون حديث، أتت سيارة إسعاف طلبها الباشا، كان الجثمان قد نقل إلى السرايا، وقام الطبيب بمعاونة من يجيد الغسل والتكفين بتجهيزه للذهاب به إلى قريته حسب الوصية، أصرت جدتي (جوهرة على مصاحبة الجثمان بسيارة الإسعاف وبالطبع كان معها أبي الذي التصق بها تماما ورعشات جسده تتصاعد وكأن الحمى قد أمسكت به تماما بكل قوتها وقسوتها، الباشا يقود سيارته وحيدا، رفض أن يكون معه أحد حتى يبكي كما يريد، وعددا من سيارات أعيان القرية وما حولها ومن عائلة جدتي الذين أبلغوا بالخبر، كان الباشا قد أجرى إتصالا بعائلة الجد وأبلغهم بالخبر الحزين وأنهم بـ الطريق إليهم، الطريق طويل، حكى أبي لي أن هذا المشهد راسخ بتفاصيله داخله، السيارات تسير خلف سيارة الإسعاف وسبحان الله كان أصحاب السيارات بالطريق أرادوا مشاركتنا الحدث، الجميع يسير بصمت وبلا ضوضاء معتادة، كانوا يفسحون الطريق عند سماع بوق سيارة الإ سعاف بل إن البعض كان يتوقف، بعد أكثر من ثلاث ساعات وصلنا إلى مشارف القرية، على الطريق الموصل للقرية المئات إن لم يكن الآلاف بانتظار الجثمان، توقفت السيارة أمام الجد الأكبر والذى أشار إلى سائق سيارة الإسعاف أن يسير بها إلى دوار العائلة قائلا بصوت جهوري:

* بدأت رحلته من هذا الدوار وتختتم رحلته منه، ذهب بجسده ولكن روحه متواجدة بنسله، سيرته العطرة التي يعلمها أهل القرية ونواحيها ميراث لن يغادرنا مطلقا.

وألقى بنظرة إلى من يصرخون ويلطمون صارخا بهم وبهن.

* لا أريد صريخا أو لطيما، كل منا هناك وقت يناديه رب العالمين، وعلى الجميع الامتثال للنداء، لا صريخ ولا أي شئ فقط الدعاء له أن يثبته الله عند السؤال.

دخلوا بالجسد بعدما تم التحقق من (التكفين) بشكل تام إلى صحن

Edit with WPS Office

الدوار، منع الدخول لأي أحد من غير زوجتيه وأولاده وإخوته وأبيه وأمه وأعمامه، الكل أخذ يردد الدعاء الذي ينطلق من الجد الأكبر بصوت يتجاوز المكان مما جعل من بالخارج يشارك بالدعاء، إستمر الأمر لوقت طويل، بعدها رفع الجد الأكبر يده مشيرا بالكف ونادى على بعض من شباب العائلة، طلب من بعضهم الإشراف على إعداد السرادق الذى سيقام لثلاثة أيام متتالية وعليهم الاتصال بكبار مقرئي القرآن، والبعض الآخر لإعداد مضيفة العائلة الكبرى وملحقاتها من أماكن لإقامة المعزين من بلدات أخرى، والاتفاق مع الطهاة ومقدمي المشروبات، الجد الأكبر رغم مصابه الجلل إلا أنه كان رابط الجأش، في أيام العزاء لم تنقطع الحشود القادمة من بلدان قريبة وبعيدة لمكانة عائلة (الصعيدي)، بانتهاء أيام العزاء طلب الباشا أن يتحدث مع الجد الأكبر للحظات.

* يا حاج يعلم الله أني كل كلمة سوف أنطقها هي كاملة الصدق، وأعرف أنك واثق أن (محروس) لم يكن يوما أحد العاملين معي، منذ أن التقينا صدفة دبرها الله وأنا أعتبره أخي وساعدي الأيمن، لأنه ومنذ قدومه و الخير لا ينقطع عنا بفضل عقله المرتب، لذا يا حاج أطمع منك بأمر أرجو أن توافق عليه، أريد لابنه (جابر وأمه وابنتها أن يظلا معي، لأنهم جزء من المرحوم والمرحوم كان يكملني، هذا رجاء مني لك.

صمت الجد الأكبر لبعض الوقت ووضع يده أسفل ذقنه وشرد لبعض الوقت، وبعدها تنهد بشكل مسموع.

* يا باشا أنت تعلم مكانتكم لدينا، صحيح لم نلتق إلا مرة أو مرتان، ولكني وجدت بك رجلا لا يتباهى بعائلته أو بسلطته أو يستقوي بماله وممتلكاته، ويكفي أن المرحوم رفض أن يغادركم حتى وفاته، لك ما تريد، فقط ليكن هذا بعد الأربعين، سوف أرسلهم إليك وربما أصطحبهم لأطمئن عليهم رغم ثقتي أنهم بأمان معكم، مع شريطة أن يحضروا على فترات لزيارة أهلهم ونأت نحن أيضا لزيارتهم حتى تقوى صلة الرحم و الدم.

* لك ما تريد يا حاج وإن أردتم أن تأتي معها الزوجة الأولى وأولادها

Edit with WPS Office

أهلا بهم.

* يا باشا إترك لي شيئا منه.

* حاضر.

وغادر الباشا، أبي حكى لي أن الباشا لم يعد كما كان ، كانت علامات الحزن تكسوه ظاهرة بنبرات صوته، استمر هذا سنوات إلى أن رأى ما كان يحلم به أن يراه نسخة من الأب، عادت الأم وأبي بعد أسبوع من إنتهاء الأربعين, وأخذ أبي رغم صغر عمره مكان الجد، وسبحان الله كان أبي نسخة من الجد بالملامح والحركات والسكتات حتى الصوت متشابه لحد كبير، وورث منه أيضا فنون الزراعة والحكمة بالتعامل مع الناس، لذا بفترة قصيرة حظي بقبول من الجميع وكانوا يرددون دوما الذى أنجب لم يمت، وعند وصوله إلى العشرين تم زواجه من (رحمة) ابنة إحدى عائلات قرية الباشا كان قد أعجب بها وهى تعمل بحقول الباشا، كان يتابعها ويرى كيفية تعاملها وحرصها على الابتعاد عن أي نوع من أنواع العبث, وبعد عام من الزواج جئت أنا للدنيا، وبعدي بعامين أختي (بهجة) التي كانت اسما على مسمى فكانت بحق بهجة البيت، إستمرت حياتنا هكذا لا يعكر صفوها شيء إلا أمور الحياة المعتادة، وكانت وفاة الجد بعد ميلادي بأربع سنوات وتلته جدتي الكبرى بعام، ولكن أعمامي كانوا دائمي الحضور إلينا محملين بخيرات الأرض وإيراد ما يخص أبي من ممتلكاته، وحاولوا مرارا أن نعود إليهم ونتولى مسئولية ممتلكات الأ ب الراحل وكان الرد واحدا بكل وقت.

* لن نغادر مكانا شهد كل شبر منه أنفاس أبي، وهانحن دوما نلتقي وأنتم أصحاب ممتلكاتنا وفوضتكم بها.

كانت الأيام تمر هادئة هانئة، تجمعنا بالجميع علاقات ود وتراحم، لم يكن ينغص علينا بعض الشيء عندما يعود أبناء الباشا وأولادهم، صحيح كانوا لا يطيلون المكوث ولكن كانت فترة بقائهم تسبب لنا كثيرا من الأ لم، يتعاملون معنا كأننا لا ننتمى للبشر، يحذرون أولادهم من الاقتراب

Edit with WPS Office

منا وبصوت جهوري بلا أي مراعاة لوجودنا، الباشا كان دوما يضغط على أسنانه غضبا، ويهديء من أنفسنا، تحملنا إكراما للباشا وكنا نقول لأنفسنا أياما ويغادرون، كبرت أنا وتعلمت من أبي كل شيء، زوجني أبي عندما وصلت التاسعة عشرة من ابنة رجل بالقرية كان بينهما ألفة وود لم ينقطع على مدار سنوات (هنادي)، فجأة إستدعاني أبي إليه يوما، أجلسني أمامه يفتح فمه ويغلقه دون أن ينطق، لمحت بهذا اليوم بريق دموع بعينه، بعد جهد تحدث بصوت مشروخ.

* يا (رشوان) ما أقوله لك الآن أقوله ويعلم ربي أنه صعب على نفسي، أنا بعد تفكير مرات قررت أن أعود إلى (محلة نصر) لأعيش ما تبقى بين إخوتي وأهلي، أزرع أرضي وأعيش ببلدتي التي لم أعرفها جيدا، ولكن بها أجدادي وأبي وأمي، ثم إن اختك (بهجة) مخطوبة لابن عمك (حسن) وزواجهما قريب، أقول لك هذا ولك القرار أن تأتي معنا أو تظل هنا، وأنا بصدق لا أريدك أن تترك الباشا وحده.

ورحل باليوم التالي، نزوره كل فترة نظل معه أياما، كان هذا من أكثر من عشرين عاما ، عشت مع الباشا إلى أن جاء اليوم الذي طلبني ، دخلت حجرة نومه، ممدا على الفراش، تجاوز الثمانين بكثير، رغم هذا العمر كان من يراه لا يعطيه هذا العمر ولكن كان شديد الوجع لهجران أو لاده وعدم التواجد.بجواره، وانشغالهم بحياتهم، حتى زوجته التي تصغره بقرابة العشرين عاما لا تأتي إلا أياما قليلة كل شهر أو شهرين وتعاود الرجوع، وكان وجودها لا يغير من الأمر شيئا ، تشعر وكأنهما زوجان على الورق وانتهت رسالتهما الزوجية بإنجاب الأولاد، كان دوما يصرح لي أنه نجح بالكثير وفشل بالأهم وهو أن يجعل من أولاده قريبين من عالمه، كان يخفف من وطأة هذا الإحساس حفيده الأكبر (خالد) الذي كان شديد الالتصاق به، كان يرفض رفضا باتا أن يغادر القرية طوال عط لاتهم، بل وكان يرفض المغادرة معهم، ولكن لظروف جامعته وفيما بعد عمله كان يعود صاغرا، ولكنه كان دائم الإتصال تليفونيا كل يوم، كان هذا الاتصال بمثابة جرعة أوكسجين نقي تعود به إلى عنفوانه النفسي،

Edit with WPS Office

وكان يكبح جماح دموعه، أمسك بكفي.

* (رشوان) أكيد أنت تعرف كم أنتم أعزاء علي، من لحظة تعارفنا بجدك رحمة الله عليه وأنا أعتبركم أولادي ومن أهلي، ولو كان الأمر بيدي أكتب لكم كل ممتلكاتي، وأعلم أني قريبا سألقى ربي لذا أقول لك، خذ هذا الخطاب وهذا المبلغ عندما يأتي نداء الله، أعرف أنك ستواجه كل ألوان الصلف والغرور والتعامل غير الجيد من أولادي وأحفادي، لأنهم للأسف يظنون أنك أنت ووالدك وجدك كان لكم التأثير الأكبر علي، لأنهم لا يعرفون أن تاثيركم كان الحب الذي لم أجده لديهم، برودة بلاد الغربة أصابت قلوبهم بالعمى والبرودة، لذا أنصحك ولك القرار أن تغادر بعد رحيلي وتذهب إلى (كفر منصور) تتبع (بنها) تسأل عن (عيسوي محمد مفتاح) أو والده إن كان حيا، هم يشبهونني طباعا إلى حد كبير، لك أن تعمل معهم أو تشتري أرضا هناك وبيتا وثق أنهم سيشملونك بكل الرعاية ، هذا ولكن إن رغبت أن تعود إلى قريتكم كما عاد أبوك، وإن كنت أوصيك أن تحقق وصيتي ورغبتي، وعدته أن أنفذ وصيته كما أراد، توفى بعد هذا الحديث بحوالي أربع سنوات، حاولت الاستمرار ولكن كل ما قاله الباشا تحقق، تعاملوا معي كأنني مرض وجب استئصاله، صبرت كثيرا إلى أن قررت أن لا مفر من المغادرة وتنفيذ وصية الباشا، بعت ما يخصني من بيت وقطعة أرض كنت اشتريتها، غادرت وتركت روحي هناك، هناك وجع كبير يقتلني وأنا أرى الأبناء يهدمون كل ما فعله الأب ، ولكن مهما باعوا لن يستطيعوا أن يبيعوا تاريخ الباشا والجد، فهذه ثوابت تظل راسخة كثيرا، الخير الذي نقدمه أشبه بمصباح مضاء لا تنطفيء شعلته أبدا، وها أناجئت, أقبل أن أعمل معكم وأتمنى أن أضع أموالي معكم تستثمر معكم، ولكم القرار، فقط لي مطلب لديكم، أن أذهب يوما الخامس عشر من يناير والثامن والعشرين من سبتمبر إلى قرية الباشا، أحتفل بميلاده ووفاته.

نهض (عيسوي) ومد يده إليه أنهضه معه، وضع يده على كتفه، حدثه.

* لك أن تعمل معنا مشرفا على زراعتنا، وأيضا سوف نستثمر أموالكم

Edit with WPS Office

معنا بما يرضى الله، الباشا كان له الكثير من الفضل علينا وجاء وقت أن نرده، أما عن مغادرتك بالأيام التي حددتها سوف نصحبك بها، الباشا صيته ذائع وكل فعله الطيب مسموع بكل الدولة، وسامح كل من يهدم تاريخا. وللأسف حسبما قرأت بالتاريخ أننا نهوى ونستمتع بهدم تاريخ من غادرونا، ولكن كما قلت هناك ما لا يستطيعون هدمه مهما حاولوا، لأنه مترسخ بالأعماق، بالعطاء والحب.

وأخذا الطريق الى حيث يجلس الأب بعيدا، إقتربا منه، وأخبره ولده كل شيء بإيجاز عن (رشوان)، لم يقل الرجل إلا كلمات مقتضبة.

* وصية الباشا أمر وتنفذ، ومن الآن أنت معنا، أهلا وسهلا بك.

في غضون أشهر أثبت (رشوان) أنه يملك من جينات جده ووالده ما يجعله ضليعا بفنون الزراعة التي تزيد من عطاءات المحاصيل، وهذا ما جعله أكثر قربا والتصاقا بعائلته الجديدة، واستطاع التقارب مع أهل (كفر منصور) حتى شعر وشعروا أنه واحد منهم، دوما ترن بأذنيه كلمة أبيه.

* كن صادقا مع نفسك نقيا تفتح لك كل الطرق وكل الأفئدة، إستقم مع الله تستقم معك الحياة وتفتح لك طريقها الميسرة.

Edit with WPS Office

4

حفيد الباشا

في شرفة شقته التي تطل على ميدان الكونكورد بباريس، جلس (خالد زياد البدوي) طقسه اليومي الذي لم يتغير على مدار سنوات زواجه التي قاربت العشر سنوات، يغادر فراشه عندما يشعر أن أول خيوط الصباح بدأت بالأفق، يميل على زوجته النائمة بجواره، يقبل جبينها، تفتح عيونها قليلا وتبتسم له ثم تعاود إكمال رحلة النوم، يمر على غرفه ولديه (حازم) الذي أسماه على اسم جده و(كارم) الذي سمي لرغبة زوجته (كريمان حيدر) سليلة العائلة الشهيرة والتي اختارها له جده، هذا الجد الذى كان يجد نفسه معه دوما، كان الجد يوليه تدليلا كثيرا الكل كان ينتقده ويقول له.

* يا باشا كن عادلا بتعاملك مع الأحفاد، حتى لا يشعرون بأي تفرقة.

تعلو ضحكات الباشا تجلجل بالمكان، وينظر للجميع نظرة تقول الكثير، يأخذه ويجلسه على ساقه، ظل يفعل هذا حتى بلغ من العمر قرابة الخامسة عشرة، بعدها كان يخجل، كان الباشا يرد على اتهامهم برد مقتضب لم يتغير ولا حرف منه.

Edit with WPS Office

* أليس هو الحفيد الأول، وهذا يعطيه الحق بالتميز رغم أني لا أميز بينهم، ولكن أنتم من تتخيلون هذا،

كان يسعد كثيرا عندما يصحبه هو إخوته وأبناء عمه وعمته، ويمشي بهم بحواري وأزقة القرية التي أغلبها يتلوى ويتعرج بشكل يثير الدهشة، رغم صغر سنه كان هناك تساؤل يتجول داخله، كيف يعيش سكان هذه الحارات والأزقة الضيقة، والبيوت التي بناؤها مختلف عن بناء سرايا الجد، كان الجد يستوقف الأطفال الذين يمرون أمامهم أثناء تجوالهم، يداعب وجناتهم وشعورهم، يخرج قطعاً من النقود الصغيرة، يعطيها لهم وهو مبتسم، مؤمن الجد أن الابتسامة أهم من أي عطاء آخر، كان يأخذهم إلى أراضيه الممتدة على مد النظر، يجلس معهم أسفل شجر التوت أو الجميز، يطلب من أحد المزارعين أن يقوم بشواء الأذرة لهم على أعواد الحطب أو الخشب ، كم كان طعمه لذيذا، كان كثيرا ما يأمر أحد الفلاحين أن يتسلق شجر التوت ويهزه وآخر يجمعه في وعاء ويقوم بغسله جيدا حسب تكرار طلب هذا من الجد، التوت الذى به ألوان الأبيض والقرمزي، كان يطلب من البعض أن يأتوا ببعض الدواب، يضع كل منهم على دابة ويقوم آخر بمساندته حتى لا يقع، رغم الخوف الذى كان يعتريه هو تحديدا لهذه اللحظة إلا أنه كان سعيدا للغاية و الدابة تسرع به، كثيرا ما كان يجلسهم بأحد زوايا الفراندة المتسعة صيفا أو بالقاعة التي يستضيف بها ضيوفه، يسمعون الحكايات ومناقشات قد لا يفهمونها ولكنه والجميع كانوا شديدي الإنصات لهذه الحكايات والأحاديث، كان يشعر بالدفء التام حين يفتح الجد ذراعيه طالبا منهم الإتيان إلى أحضانه، كان هو أسرع الجميع مؤكد لأنه كان أكبرهم عمرا، ولكن تأت لحظة المغادرة، هذه اللحظة المؤلمة غاية الألم، يصرخ ويضرب الأرض بقدميه ويبكى بشدة ويظل يردد.

* جدي جدي، أريد أن أظل معك، لا أريد أن أذهب معهم.

يضحك الجد ويأخذة بين أحضانه يقبلة كثيرا ويداعب شعره، يميل عليه يخاطبه كأنني كبير.

Edit with WPS Office

* يا (خالد) يا حبيبي لازم نسمع كلام بابا وماما، هم يحبونك جدا ولا يمكن ولا يصح أن يسافروا من غيرك أنت وإخوتك، من أجل مدرستك، ثم يا حبيبي من أجل أن تشتاق لي وتعود إلى أكبر، سأنتظرك بل سأنتظركم، ويضمني ويضم الجميع بشدة، وينهض مغادرا يدخل حجرته الخاصة، فيما بعد عرفت أنه يطلق عنان دموعه التي لا يريد لها أن تنطلق أمامنا نحن الصغار، نظل أنا وأولاد عمي (حسن) وعمتي (جميلة) كل منا ينظر من الزجاج الخلفي للسيارات نرفع أيادينا بالتلويح له والدموع تغسل وجوهنا، الصمت يغلفنا جميعا، خطواتنا بطيئة لا تريد المغادرة، نسمع نداءات الآباء والأمهات والجدة التي هي دائمة مصاحبة لنا ذهابا وإيابا، ورغم صغر عمري كنت أتساءل لماذا نترك الجد وحيدا؟ وللحقيقة لم أصل للإجابة، الجد رجل شديد البساطة بشوش لم نره يوما على هيئة غير هذه، ولكن ربما كما سمعت من أبي وعمي وعمتي أن جدتي(افتخار هانم) التي بها جانب تركي من والدتها، هي لا تحب أن تظل على شاكلة واحدة، وشكل يومي وممل من وجهه نظرها، ومن جهتي لا أقتنع بهذا المبرر، الزوجة زوجة عليها مسئولية تجاه الزوج أيا كانت ظروف حياته، وما عرفه من خلال قراءته أن المرأة التركية رغم شدتها إلا أنها شديدة الاهتمام بأسرتها، يدخلون إلى باطن الطائرة، يهربون من ساعات السفر بالخلود إلى النوم، ومؤكد النوم يعطيهم فسحة لاستعادة بعض أيامهم مع الجد، تصل الرحلة يجدون البرد والصقيع ينتظرهم يلفح وجوههم بعنف وكأنه يصفعهم، كيف يغادرون الدفء إلى الصقيع، فبعد أيام يذهبون إلى مدارسهم الداخلية التي هي أكثر برودة من خارج جدرانها، كل شيء آلي مبرمج، لا مشاعر ولا حنو، تجمعهم بأسرهم علاقات الإجازات التي أيضا بها روتين، الحديث بحساب، الحركة بحساب، لا تفعل هذا، لا تنسى أنك سليل باشوات، مل من سماع هذه العبارات، التي تشنف آذانه كل إجازة، هكذا عاش حياته غريبا رغم كل الرفاهية التي يعيشها، ولكنه يراها رفاهية معلبة مصنوعة لا يوجد بها أي نوع من الألفة الإنسانية والمشاعرية، تأكد أن البرودة شعار دائم لهذه البلاد الباردة، جاب كثيرا من البلاد مع أسرته وجد أن هناك قاسما

Edit with WPS Office

مشتركا بينهم وهو برودة كل شيء حتى الإنسان، يأخذ حمامه الدافيء أو للحقيقة شديد السخونة، هو يعشق الماء الساخن، يراه يزيل الكثير من الوجع بداخله، يشبهه بأنه أشبه بمزيل الدهون، بعدها يعد كوبا من الحليب الدافيء مع ملعقة عسل أبيض يأتي به وبكميات من مصر، عشق هذا المشروب من جده الذي كان أول من جعله يشربه، يقف على سور الشرفة يتأمل نهر السين، يعشق رؤية جريان المياه بالنهر، يشبه هذا بأنه مثل الحياة لابد من الاستمرار رغم أي شيء، المياه تجري بشكل مستمر بلا توقف، كما بالليل يعشق رؤية الأضواء التي ترتسم على صفحته بأشكال متعددة وبألوان مختلفة لا يمكن لأي رسام مهما كانت قدرته على رسم هذه اللوحة الإلهية البديعة، الجد حال وجوده بباريس دوما يكون هو برفقته، في هذا الصباح جلس كما تعود على الكرسي الهزاز وأخذ يتمايل يمنه ويسره مغمضا عينيه، هذه عادته إذا أراد أن يستعيد مشاهد مرت به حتى لو من سنوات، الذاكرة مخزن للذكريات بشقيها، وكثيرا ما نلجأ إليه نتذكر لحظاتنا التي قد يؤدي تذكرها إلى معالجة بعض شروخ طرأت على دواخلنا من دروس هذه الذكريات، تذكر هذا اليوم الذي مر عليه قرابة الخمس سنوات، حينما هاتفه الجد الذي كان قد تجاوز الثمانين واقترب من التسعين، لم يشك مرضا أبدا، إلا بعض نز لات البرد وما شابه من أمراض تعتري الكل، وجد صوته واهيا بل شديد الوهن، لم يقل يومها إلا جملة واحدة.

* (خالد) أريدك أن تأت حالا وفي أقرب وقت، أحتاج وجودك، لك الحرية أن تخبرهم أو لا تخبرهم، ما يهمني هو أنت.

إحتار يومها أيخبر الجميع أم لا ؟، ولكن بالنهاية قرر أن يخبرهم حتى لا يواجه بلوم وتعنيف، سارعوا جميعا بالحجز على أول طائرة مغادرة لباريس، أقبلوا على حجرته، وجدوه ممدا على الفراش شاحب الوجه، عروقه نافرة، أخذوا يقبلونه ويسألون عما به، وماذا قال الأطباء، طمأنهم وهو الأحوج للطمأنينة، بعد أن غادروا كل إلى جناحه الخاص، أشار إلى (خالد) بالانتظار، تبادلوا فيما بينهم نظرات الدهشة، ولكن لم يستطيعوا توجيه أي تساؤل، غادروا، طالبه بإغلاق الباب جيدا ثم العودة للجلوس

Edit with WPS Office

بجواره حسبما أشار إليه، أمسك بكفه رفعه إلى شفتيه وقبله، تحدث إليه بصوت شديد الخفوت.

* إسمعني جيدا بلا مقاطعة، منذ أكثر من مائة وخمسين عاما جاء جدي(نعمان) إلى هذه القرية، حكوا لي أنها كانت تضم عددا من البيوت لا يتجاوز أصابع اليدين، والغيطان هي الغالب على المكان، الجد كان من النوع الذى يبحث عن الهدوء لا يحب الصخب بألوانه مثل غيره، إشترى مساحات كبيرة من الأرض، وبنى سرايا ليست كبيرة كما تشاهدها الآن، عشق الحياة بها لا يغادرها إلا لواجب إجتماعي أو حفل بالأوبرا أو بأحد المسارح، على عكس جدتي (بهيجة) التي منذ اليوم الأول وهى تبدي التذمر والتأفف وتبرطم بلغتها التركية المطعمة بالعربية المكسرة، كان أبي الوحيد الذى شارك الجد العشق أما إخوتي (عزمي ورفيق)، تطبعوا بطبعها، حاول الجد مرارا أن يغير من طباعهم ولم يفلح، لكي يتخلص من هذا ذهب بهم إلى القاهرة وتركهم ببيت يملكه هناك، وكان يذهب إليهم كل أسبوعين يبيت ليلة ويفر عائدا، لأن الليلة كانت كلها جدل ومشاحنات والحاح أن يترك كل شيء ويعود، كيف يرتضي العيش وسط أناس لا تجمعه بهم أي صلة أو حتى تشابه من أي نوع ويترك حياة الرفاهية، صارت زياراته إلى القاهرة التي كنت أصحبه لها تتباعد، أنا أصررت على وجودي معه، عشت بين الناس البسطاء، تصرفاتهم عفوية صادقة، أصدقائي كانوا من أولادهم، لعبت معهم كل ألعاب الطفولة والشباب، أكلت معهم بالحقول وعلى المصاطب، كانوا يخافون علي مثلما أخاف عليهم، بعد سنوات أصرت والدتي على السفر إلى إسطنبول، حيث أهلها وحسب ما قالت لأبي مبررة سفرها، أنها تريد لأولا دها أجواء منفتحة بدلا من هذا الجو المغلق بشكل كبير، ولم أفهم لحظتها ما الانفتاح وما هو مغلق، كانت تحضر كل نصف عام لمدة أسبوعين، لا تمكث بالقرية إلا أياما قليلة وتهرب إلى القاهرة أو الإ سكندرية بصحبة اخوتى، وأنا كالعادة رافض، حتى أنها لم تعد تسألني عن مصاحبتها، إخوتي فيما بعد رفضوا نهائيا الحضور، بالتأكيد هذا البعد أوجد حاجزا كبير بيننا، لم نعد نلتقي أو نتجمع على مائدة طعام

Edit with WPS Office

واحدة، كل الأيام أنا وأبي فقط، ما سأقوله لك أقوله لأن بك تشابه مني، وتصدق والله نفس الجملة قيلت لي من أبي وربما بذات الجلسة التي أنا عليها، وكأن نفس المشهد لابد أن يمر به كل جيل من العائلة، هذه السرايا بدأت صغيرة كما قلت لك ثم قام أبي بالإضافات إليها وهكذا فعلت أنا حتى أصبحت كما ترى، السرايا مع تعاملنا مع الناس أيا كان مستواهم، هم رموز عائلتنا، أعرف تماما عندما يسترد الله وديعته أن أباك وعمك وعمتك سوف يبدأون ببيع كل شيء لأول مشتري دون أن يدركوا قيمه ما يبعونه، لذا كتبت لك هذه السراية حتى تحافظ عليها وأعرف قدرتك على هذا، وإن استطعت شراء ما يبيعونه يكون شيئا طيبا، لا تتغيب عن القرية والسراية كثيرا، إقترب من الناس تجدهم عونا لك، إجعل (رشوان) واستدع (جابر) والده إن كان حيا لن يتأخر بـ العودة ليكونا ساعدك الأيمن، هم موثوق بهم مثل جدهم، أعرف أني أضع حملا كبيرا على كاهلك، ولكني واثق من أنك تستطيع أن تعيد لعائلتنا مكانتها، هذه السراية يا حبيبي تاريخ، كم من المرات شهدت لقاءات نجوم السياسة متمثلة بالأحزاب، كم من اجتماعات تمت، وكم من سهرات وحفلات أقيمت إرتادها من يسمون أنفسهم علية القوم، تشكلت وزارات هنا، وهيئات أحزاب هنا، واتخذت قرارات هنا بعضها كان جيدا وكثيرا منها كان سببا في ترهل الوضع السياسي والاقتصادي، لا تجعل من أبيك أو عمك قدوة وأقول لك هذا وأنا حزين بل أشعر بانكسار داخلي، هم قبل كل شيء أولادي، كم تمنيت أن يكونوا قريبين من بعض إنسانيا، هم غرباء عن بعض بل بالحقيقة غرباء حتى عن أنفسهم، هم لا تربطهم ببعض سوى علاقات العمل والبيزنس، كل منهما يعيش بجزيرته المنعزلة عن الآخر، يعيشون الرفاهية وملذات رغباتهم، اعرف أن الغربة تبدأ من لحظة نزع جذورك من موطنك ونزع ثياب تاريخك، ولكن صدقني هم ليسوا ناجحين كما يعتقدون، النجاح يا بني هو تذوق الحياة ، وهذا لا يتأتى إلا أن تنغمس بها، تنصهر بين أناسها على اختلاف شرائحهم، كن بسيطا بلا تعالى ولا تغتر بمال أو سلطة، الثراء هو الألفة الإنسانية والحياتية، أن تكون واحدا من الناس ومثلهم، تتفتح عيونك على حقيقتها بلا تزييف، أضع أحلاما لم أحققها أمانة بين يديك، عد إلى

Edit with WPS Office

جذورك وإلى حقيقتك وإلى ثيابك الحقيقية، ولا تنزع مطلقا مبادئك، حاول أن تلم شتات إخوتك وأبناء عمك وعمتك، لا تسيروا على درب جدي وأبي، ولا تستجيبوا لنداءات الغربة، ولكن لا تجبر أحدا أن يأتي بلا رغبة كاملة وبإرادته، إن أتوا ولبوا نداء أجدادهم وعاشوا وتمسكوا بـ العيش هنا، والمواءمة بين عملهم وحياتهم، السرايا تكن لكم جميعا، وأنت تفهم مقصدي، عدني بما طلبت رغم ثقتي أنك قادر، أمسكت بيده ووعدته، وارتميت على صدره أبكي، ربنا أعلم وخرجت ضحكة قصيرة وقال.

* الرجال لا تبكي.

لم يكد يمر الشهر إلا كان قد أسلم الروح، من المحزن أن لا يكون الأبناء فى مقدمة مشيعي جثمان أبيهم، حضروا بعد اليوم الثالث من الوفاة، بداعي أن حجز الطيران لم يسعفهم، ولكن الحقيقة أنهم فقدوا الإحساس بحميمية علاقة الأب بأبنائه، هم لا يشعرون بأولادهم ولا يعرفون عنهم الكثير، يكتفون بالاتفاق المادي، وكأن كل الحياة اختصرت بالمال و السلطة، أتت وفود من المعزين من كل مكان، وجهاء مجتمع، سياسيون، وزراء، وفنانون، ولكن اللافت للنظر أن الحزن كان مرتسما على وجوه البسطاء وصار عنوانا لهم، مرت أيام العزاء، أبي وعمي وعمتي وكل الأ بناء سارعوا بالمغادرة بعد جلسة جمعتهم يتداولون بها حصة كل منهم من الميراث، وعن نيتهم البيع فهم لا يعرفون شيئا بهذا العالم الذي كان يعيشه الأب ولا ينتوون المعيشة هنا أو حتى المجيء، وعندما جاءت سيرة التخلص من السرايا، أخرجت لهم عقد امتلاك السراية لي كما فعل الجد، أصابتهم الدهشة والخرس ودارت العيون في محاجرها، ولكن لم ينبس أحدهم بحرف، ونهضوا كل منهم يشعرك أنه أصيب بصدمة كبرى، ظللت أنا حتى الأربعين وغادرت بنيه العودة تدريجيا إلى القرية، الأمر كان يحتاج بعض الوقت لإنهاء ارتباطات، عازما على العودة بأقرب وقت ولكن الأمر خرج من يدي، شغلتني أمور العمل ودراسة الأبناء، كنت أعود كل ستة أشهر لمعرفة كيف تسير الأمور ، أتابع مع (رشوان) كل شيء، يثبت لي أمانته، افتح باب السرايا على مصراعيه، أستقبل الجميع واسمع

Edit with WPS Office

حكاويهم وشكايتهم، أمنحهم بعض الهدايا البسيطة التي أرى أثرها على الوجوه، (رشوان) يطلعني على بعض الحالات التي تحتاج لمساعدة لمرض أو لتجهيز أحد الأبناء أو البنات للزواج، أسمع منه ما يضيق له صدري أن أبي أو عمي أو عمتي يقومون ببيع الأراضي بأسعار زهيدة ليؤكدوا جهلهم، ولسعيهم لإكمال نزع كامل جذورهم وملابسهم التي تشير إلى أنهم من هذه القرية، أوصيت (رشوان) أن يشتري ما يمكن دون الإفصاح عني، وأن تكون العقود باسمه أو اسم أبيه، وقد استطاع دون أن يساورهم الشك بهذا أو حتى التساؤل من أين يأتي بالأموال، بعد وفاة الجد بثلاثة أعوام فاجأني (رشوان) بطلب المغادرة لأنه لم يعد يتحمل صلف وغرور أولاد عمومتي وتعاليهم عليه، رغم فترات وجودهم القليلة، حاولت كثيرا إثناءه عن هذا، بكى وهو يقول

* والله والله غصب عنى، أنا لا أعرف كيف أعيش بعيدا عن هنا، ولكنه أمر الله، ولكني أبدا لن أنسى ما حييت الباشا وأنت، اعطني فرصة للهدوء قليلا.

لم يكن أمامي إلا موافقته، اخترت أحد أبناء القرية لمتابعة كل شيء وذلك بترشيح من (رشوان)، قررت أن أبني ضريحا لجدى، مسجدا كبيرا ، وأن أتقدم بطلب لنقل رفاته إلى الضريح، والحمد لله تم هذا خلال عام ، تتالت عودتي مع الأولاد حرصا مني على ترسيخ جذورهم بالقرية و الحمد لله نجحت حتى صاروا يطالبون بالعودة نهائيا، ليلة البارحة رأيت جدي بالمنام يربت على كتفي بحنان بالغ، رأيته صاحب وجه وضاء، قال لي كلمات قليلة.

* عد فقد حان وقت العودة والإصلاح، حان وقت أن يعود اسم (البدوي) لأن يظل على كل الألسنة بحب وذكر حسن، وأنا الآن أنظر من شرفتي على السين مودعا، اليوم سأنهي إجراءات عودتنا، لأكون كما أوصاني الجد، ستعود المصانع التي أغلقت أو بيعت وتوقف إنتاجها، ستعود المستوصفات الطبية، ستعود السرايا مفتوحة دوما أمام الجميع، سأمشى بكل دروب القرية ممسكا بيد أولادي، أقربهم من كل شيء بـ

Edit with WPS Office

القرية، سأضاحك الأطفال الصغار وأمنحهم الحلوى كما كان يفعل الجد، سأجلس بهم على المصاطب أتناول الشاي مع الجميع وأسمع حكاويهم وأوجاعهم، سأذهب بهم إلى الحقول يأكلون الأذرة المشوية، ويهزون أشجار التوت ويصعدون شجر الجميز، ويسمعون غناء الفلاحين وهم يقومون بأعمال الزراعة، سأجعل (رشوان)يجعلهم يركبون الماشية، سأجعلهم يفعلون ما يريدون، سأجعل أهل القرية يفركون أعينهم مرات ومرات دهشة, هل عاد الباشا من جديد، يجب أن نعود للسير على نهج الجد. سأرسل إلى (رشوان) ومعه والده (جابر) إن كان حياً ليعود فكل شيء عائد كما عاشه وعشته.

عيد ميلاد ميت

باليوم الخامس عشر من يناير وقف (خالد البدوي) على باب ضريح الجد يستقبل من جاءوا يحتفلون بعيد ميلاد الجد، يجاوره (رشوان)، أهل القرية يقفون صفوفا، بعضهم يحمل صور الباشا، والبعض يحكى عن مآثره، تلمح البريق عرف طريقه لكل العيون، حشود أتت من كل البلاد لتحتفل بذكرى ميلاد الباشا، حتى أن (محمد البرنس) وكامل عائلته أتوا، القرآن يغلف المكان ويسود السكون كل شيء، يستمر هذا طيلة النهار، بتصرف الجميع ويتبقى الحفيد وأولاده الصغار، يتكرر الأمر بـ الثامن والعشرين من سبتمبر، وصار طقسا سنويا دائما، وفي كل مرة يسرع بعدها (رشوان) إلى الضريح ويجلس القرفصاء، يضع وجهه عليه،

Edit with WPS Office

تنسال دموعه متمتما.

* والله يا باشا أنت الحي وكلهم ميتون.

كم مات قوم وما ماتت مكارمهم

وعاش قوم وهم فى الناس أموات

أحمد طايل

طنطا

16سبتمبر2023

Edit with WPS Office